أخبار عبد الله بن المعتز بالله

اسمه وكنيته

[هو عبد الله بن المعتز بالله] أبي عبد الله محمد ـ وقيل : الزبير ـ وقد تقدَّم ذِكْر ذلك وذِكْر النَّسب فى أخبار المُعتزّ . ويكنى « عبد الله » : أبا العباس .

شيء عنه

وكان ابن المُعتز فاضلَ بنى العبّاس وشاعرَهم . وشعره ، وإن كان فيه رقَّة المُلوكية وغَزل الظُّرفاء ، فإن فيه أشياء كثيرةً تَجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصُر عن مَدَى السابقين . وهو صاحبُ التَّشبيهات البديعة التى لم يَشُقَّ فيها أحدٌ غُبارَه . وكانت له فضائلُ أخرى وعلومٌ غير الأدب . وكان عالماً بصناعة المُوسيقى وعِلَلِ الغناء . وبُويع بالخلافة له ببغداد يوماً واحداً ، سنة ستٍّ وتِسعين ومائتين ، فلم يَتِمّ له الأمر وتفرّق عنه أصحابه ، ثم قُبض عليه وقُتل خَنقاً . فقال فيه ابنُ بسّام :

لله دَرُّك من مَيْتٍ بمَضْيعةٍ ... ناهيكَ فى العِلْمِ والآدابِ والحَسبِ

ما فيه «لوّ» ولا «ليت» فتنقصَه ... وإنما أدركتْه حرفةُ الأدب

شعر فى غلام له جدر

وذُكر أنه كان لعبد الله بن المُعتز غلامٌ كان يُحبّه ، وكان يُغنّى غناء صالحاً ، فجُدر . وجَزِع عبدُ الله لذلك جزعاً شديداً ، ثم عُوفى ولم يُؤثِّر الجُدَرِىّ فى وجهه أثراً قَبيحاً . فقال فيه عبدُ الله بن المعتز :

لى قَمرٌ جُدِّر لمّا استوى ... فزاده حُسناً فزالت[1] هُمومْ

أظنُّه غَنَّى لشمس الضُّحى ... فنقَّطته طَرَباً بالنُّجوم

---

(١) الرواية فى غير التجريد : « فزادت » .

شعره فى ترضيه وقد غضب عليه

وذُكر أن هذا الغُلام غَضب على عبد الله بن المُعتز ، فجَهِدَ فى أن يرضى ، فلم يكن له فيه حيلةٌ ، فقال فيه :

بأبى أنتَ قد تما ... ديتَ فى الهَجر والغَضبْ
وأصطبارِى على صُدو ... دِكَ يوماً من العَجبْ
ليس لى إن فقدتُ وجـ ... ـهك فى العَيش من أَربْ
رَحم الله من أعا ... ن على الصُّلح واحتسب

قال جعفر بن قُدامة : لمّا سمعتُ هذا الشعرَ مضيتُ إلى الغُلام ولم أزل أُداريه وأرفُق به حتى ترضّيتُه وجئته به ، فمرّ لنا أطيبُ يوم وأحسنُه .

شعره فى سيل أصاب داره

وذُكر أنه جاء سَيلٌ أحدث فى دار عبد الله بن المُعتز ما أحوجه إلى غَرامة وكُلْفَة فى إصلاحها ، فقال فى ذلك :

ألا مَن لنَفسٍ وأحزانِها ... ودارٍ تَداعَى بحيطانِهـا
أَظَلَّ نهارىَ فى شمسها ... شَقِيًّا مُعنًّى بِبُنْيانِهـا
أُسوِّدُ وجهى بتَبييضِهـا ... وأُخرب[1] كِيسى بعُمرانها

وذُكر أنَّ رجلاً نبيهاً فاضلاً احتاج إلى تَزويج ابنته من دنئ ، فقال ابنُ المعتز فى ذلك :

وبِكْرٍ قلتُ مُوتى قبل بَعْلٍ ... وإنْ أُثْرى وعُدَّ من الصَّميمِ
أأمزُج باللِّئام دَمِى ولَحمِى ... فما عُذْرِى إلى النَّسب الكَريم

شعره فى رجل أطال السجود فى صلاته

وذُكر أن رجلا صلّى بحضرة ابن المُعتز صلاة خفيفة جدًّا ، ثم دعا عُقيب صلاته وسَجد سجدةً طويلة استثقله جميعُ مَن حضر بسببها . فقال فى ذلك ابن المعتز :

(١) فى غير التجريد : « وأهدم » .

صلاتُك بين الورى نَقرةٌ كما اختلس الجرعةَ الوالغُ
وتسجُد من بعدها سجدةً كما خُتِم المِزْوَدُ الفارغ

شعره فى جارية قبيحة تعلق بها

وذُكر أنَّ ابن المُعتز لاعب امرأة قبيحةَ الصُّورة وتعلَّق بها ، فعُوتب على ذلك ، فقال :

قلبيَ وثَّابٌ إلى ذا وذا ليس يَرى شيئاً فيأباهُ
يَهيم بالحُسن كما ينبغى ويَرحم القُبْح فيَهْواه

تعقيب لابن واصل فى مثله

قلتُ : وسمعتُ لبعض الشُّعراء اعتذاراً فى حُبِّ قَبيحِ الصورة :

وما حُبِّي له رِجْساً لأنِّى تركتُ الحُسن واخترتُ القَبيحا
ولكنْ غِرْتُ أن أهوى مليحاً وكُل الناس يَهْوَوْن المَليحا

بينه وبين جارية تركت النبيذ

وذُكر أنَّ ابن المُعتزّ كان يُحب مُغنِّية مُحسنة شاعرة ظريفة ، فتركتِ النَّبيذ ، فكَتب إليها :

رأيتُك قد أظهرتِ زُهداً وتَوبةً فقد سَمُجتْ من بعد توبتكِ الخَمرُ
فأهديتُ وَرْداً كى يُذَكِّر عِيشةً بمن[1] لم يُمتِّعنا بهَجتها الدَّهر

فأجابته :

أتانى قريضٌ يا أميرى مُحَبَّرٌ حَكى لِيَ نَظْمُ الدُّرِّ فُصِّلَ[2] بالشَّذْرِ
أأنكرتَ يابنَ الأكرمين إنابَتى وقد أفصحتْ لى ألسُن الدَّهْر بالزَّجر
وآذنَنى شَرْخُ الشَّباب ببَيْنه فياليتَ شِعْرى بعد ذلك ما عُذرى

شعره فى الربيع

وحَكى جعفر بن قُدامة قال :

كنتُ أشرب مع عبد الله بن المُعتز فى أيام الرَّبيع ، والدُّنيا كالجنّة المُزخرفة ، فقال عبدُ الله :

(١) فى بعض أصول الأغانى : « لمن » .
(٢) الشذر : خرز تفصل به الجواهر فى النظم .

حبّذا آذار شهراً فيه للنَّور انتشارُ
ينقصُ الليلُ إذا حـ ـلّ[1] ويمتدُّ النَّهار
وعلى الأرض اصفرارٌ وأحمرار وأخضرار
وكأنّ الأرض[2] وشْيٌ بالغتْ فيه التُّجار
نَقْشُه آسٌ[3] ونِسر ينٌ ووَرْدٌ وبَهار[4]

(١) فى غير التجريد : « جاء » .
(٢) فى غير التجريد : « الروض » .
(٣) النسرين : ورد أبيض عطرى قوى الرائحة . معرب .
(٤) كأن الحديث عن ابن المعتز لم ينته ، فلم يختمه ابن واصل بما يختم به تراجمه من ذكر الشعر الذى فيه الغناء .

أخبار زهير بن أبي سلمى

واسم أبي سُلمى ربيعة بن رِياح بن قُرّة بن الحارث بن مازن بن ثَعلبة بن ثَور بن هَرْمة بن الأصمّ بن عُثمان بن مُزينة .[1] وهو عمرو بن أُدّ بن طابخة بن اليأس بن مُضر بن نِزار .

أحد الثلاثة المقدمين فى الشعر

وهو أحدُ الثلاثة المُقدَّمين على سائر الشُّعراء باتفاق ، وهم : امرؤ القيس ، وزُهير ، والنابغة الذُّبيانى . وإنما اختُلف فى تقديم بعضهم على بعض .

بين عمر وابن العباس فى تفضيله

وحدّث عبدُ الله بن العبّاس قال : قال عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ليلةً فى مسيره إلى الجابية :[2] أين ابنُ العبّاس ؟ فأتيتُه ، فشكا إلىّ تخلُّف علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . فقلتُ له : أولم يعتذر إليك ؟ قال : بلى . قلت : فهو ما أعتذر به . ثم قال : أوّل من رَيَّثكم عن هذا الأمر أبو بكر ، إنّ قومكم كَرِهوا أن يجمعوا لكم بين الخلافة والنبوّة — قال أبو الفرج : ثم ذكر قصةً طويلة ليست من هذا الباب فتركتها —[3] ثم قال : هل تَروى لشاعرِ الشُّعراء ؟ قلت : ومن هو ؟ قال الذى يقول :

ولو أنّ حَمداً يُخلِدِ الناسَ أُخْلدوا ولكنّ حَمد الناسِ ليس بمُخلدِ

قلت : ذاك زهير . قال : فذاك شاعر الشُّعراء . قلت: وبم كان شاعر

---

(١) هذا سياق التجريد . وأصول الأغانى على غيره ، ففيها : « ... بن عثمان بن عمرو » . ثم زادت : « ومزينة أم عمرو بن أد ، هى بنت كلب بن وبرة » . ويقول ابن حزم فى « الجمهرة » : « وهؤلاء بنو عمرو بن أد ، وهم مزينة ... فنسب ولدها إليها » .

(٢) الجابية : قرية من أعمال دمشق .

(٣) انظر الطبرى (ق ١ ص ٢٧٦٨ - ٢٧٧١) .

الشعراء ؟ قال : لأنه كان لا يُعاظِل[1] فى الكلام ، وكان يتجنَّب وَحْشِىّ الكلام ، ولا يَمدح أحداً إلا بما فيه .

بين معاوية والأحنف فى تفضيله

وذُكر أن مُعاوية بن أبى سُفيان سأل الأحنف بن قيس عن أشعر الناس . فقال : زُهير . فقال: وكيف ذلك ؟ قال : أُلتى عن المادحين فضولَ الكلام. قال: مثل ماذا ؟ قال : بقوله :

فما يَكُ من خيرٍ أتَوْه فإنما توارثه آباء آبائهم قَبْلُ

استعاذة النبى صلى الله عليه وسلم منه

ورُوى عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم أنه نَظر إلى زُهير بن أبى سُلمى ، وله مائة سنة ، فقال : اللهم أَعِذْنى من شَيطانه ! فما لاكَ بيتاً حتى مات .

معلقته وسببها

وذُكر أنّ رجلاً من بنى عَبس ، ثم من بنى غالب ، يقال له: وَرْد بن حابس ، قَتل هَرِم بن ضَمضم المُرِّى فى حرب عَبس وذُبيان قبل الصُّلح ، وحلف حُصين بن ضَمضم ألّا يَغسِلَ رأسه حتى يَقْتل وَرْدَ بن حابس أو رجلاً من بنى عَبس ، ثم من بنى غالب ، ولم يُطْلع على ذلك أحداً . وكان قد حَمل الحَمالَة[2] الحارثُ بن عَوف بن أبى حارثة المُرِّى . فأقبل رجُلٌ من بنى عَبس، ثم أحد بنى مَخزوم ، حتى نزل بحُصين بن ضمضم . فقال له حُصين : مَن أنت أيها الرجل ؟ قال : عَبْسِىٌّ. قال : مِن أىّ عَبس ؟ فلم يزل يَنْتسب له حتى انتسب إلى بنى غالب . فقتله حُصين . و بلغ ذلك الحارثَ بن عَوف ، وهَرِمَ بن سنان، المُرِّيَيْن ، فاشتدّ عليهما. و بلغ بنى عَبس فركبوا نحو الحارث . فلما بلغه ركُوبهم إليه ، وما قد اشتدّ عليهم من قَتل صاحبهم ، وأنهم يريدون الحارثَ به ، بَعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنُه ، وقال للرسول : قُل لهم : الإبل أحبُّ إليكم أم ابنى تقتلُونه مكانَ قتيلكم ؟ قالوا : بل نأخُذ الإبل ونُصالح قومَنا ويتمّ الصُّلح . فقال زُهير يمدح الحارث بن

(١) أى يحمل بعضه على بعض ، ويكرر اللفظ والمعنى . (٢) الحمالة : الدية .

عَوف، وهَرِمَ بن سنان، المُرِّيين، ويذكر سَعْيهما فى صُلح قومهما. وهى قصيدتُه التى أولها الغِناء، وافتتح به أبو الفرج أخبار زُهير بن أبى سلمى، وأولُها:

أَمن أُمِّ أَوْفَى دِمْنةٌ لم تَكلَّم ... بحَوْمانةِ الدَّرّاجِ (١) فالمُتَثَلَّم
لها العِينُ والآرام يَمْشِين خِلْفةً ... وأَطلاؤُها يَنْهَضن من كُلِّ (٢) مَجْثَم
وقفتُ بها من بعد عشرين حِجَّةً ... فلَأْيًا عرفتُ الدارَ بعد (٣) توهُّم
فلمّا عرفتُ الدار قلتُ لرَبْعِها ... ألَا انْعِمْ صَباحًا أيُّها الرَّبعُ واسلم

ومنها:

ومَن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاج فإنه ... يُطيع العَوالى رُكِّبت كُلُّ (٤) لَهْذم
ومَن هاب أسبابَ المَنايا يَنَلْنَه ... ولو نال (٥) أسبابَ السَّماء بُسلَّم

يقول فيها فى مَدح الحارث، وهَرِم:

سَعى ساعيًا غَيْظ بن مُرّة بعد ما ... تبزَّل ما بين العَشيرة (٦) بالدَّم
تدارَكتُما عبسًا وذُبيانَ بعد ما ... تفانَوا ودَقُّوا بينهم عِطْر (٧) منْشَم
فأصبح يُحْدَى فيهُم مِن تِلادكم ... مَغانمُ شَتَّى من إفالٍ (٨) مُزَنَّم

(١) الدمنة: آثار الناس وما سودوا بالرماد. والحومانة: المكان الغليظ. والدراج والمتثلم: موضعان.
(٢) العين: البقر. والآرام: الظباء. وأطلاؤها: أولادها. والمجثم: الموضع يجثم فيه ويقام.
(٣) الحجة: السنة. واللأى: البطء.
(٤) الزجاج: جمع زج، وهو أسفل الرمح. والعوالى: جمع عالية، وهى أعلى الرمح. يريد أن من لم يقبل الأمر الصغير فسيضطر إلى قبول الأمر الكبير. واللهذم: القاطع من كل شىء.
(٥) الرواية فى المعلقات: «ولو رام».
(٦) تبزل: تشقق.
(٧) منشم: امرأة عطارة، تحالف قوم فغمسوا أيديهم فى عطرها ليتحرموا به، ثم خرجوا للحرب فقتلوا جميعاً، فتشاءمت العرب بها.
(٨) التلاد: ما ولد عندك. وهذا أصله. ثم أطلق على كل ما يملك الرجل. والإفال: الفصلان. والمزنم: الذى جعل فيه علامة تميزه، وكذلك كان يفعل بكرام الإبل، كان يسحى ظاهر الأذن — أى يقشر — ثم يفتل، فتبقى زنمة تضطرب. والرواية فى غير التجريد والمعلقات: «فأصبح يجرى». مكان «فأصبح يحدى»

يُنجِّمها (١) قومٌ لقـــوم غرامةً ولم يُهَرِيقوا بينهـــم مِلْءَ مِحْجَم

زواج الحارث من بنت أوس

وذُكر أن الحارثَ بن عوف بن أبى حارثة المُرِّى قال لخارجة بن سِنان بن أبى حارثة ، وهو ابن عمّـــه : أترانى إن خطبتُ إلى أحـدٍ رَدّنى ؟ قال : نعم . قال : ومَن ذاك ؟ قال أوسُ بن حارثة بن لَأم الطائىّ . فقال الحـارث لغُلامه : ارحل لنا .(٢) ففعل. فركب الحارثُ وخارجةُ حتى أتيا أوسَ بن حارثة فى بلاده ، فوجداه فى فِناء منزله . فلما رأى الحـارثَ بن عوف قال : مرحباً بك يا حارِ . قال : و بك . قال : ماجاء بك يا حارِ ؟ قال : جئتُك خاطباً . قال: لستَ هناك . فانصرفَ ولم يُكلِّمه . ودَخـل أوسٌ على امرأته مُغضَباً ، وكانت من عَبس ، فقالت : مَن رجُلٌ وقف عليـك فلم يُطل ولم تُـكلِّمه ؟ قال : ذلك سيِّد العرب الحـارثُ بن عَوف بن أبى حارثة المُرّى . قالت : فما لك لم تَستنزله ؟ قال : إنه أستحمَق . قالت : وكيف ؟ قال : إنه جاءنى خاطباً . قالت : أفتُريد أن تزوّج بناتِك ؟ قال : نعم . قالت : فإذا لم تُزوِّج سيدَ العرب فمن ؟ قال : قد كان ذلك. قالت : فتدارَكْ ما كان منك . قال : بماذا ؟ قالت : بأن تَلْحقه فترُدّه . قال : وكيف وقد فرط منى ما فَرط إليه ؟ قالت : تقـول له : إنكَ لقيتَنى وأنا مُغْضَب بأمرٍ لم تُقدِّم فيه قولاً ، ولم يـكن عندى من الجواب إلا ما سمعتَ ، فانصرفْ ولك عندى كل ما أحببتَ ، فإنه سيفعل . فَركب فى إثرهما .

قال خارجةُ بن سِنان: فوالله إنّا لنَسير إذ حانت منّى التفاتةٌ فرأيتُه . فأقبلتُ على الحارث — وما يُكلِّمنى غَمًّا — فقلتُ له : هذا أوسُ بن حارثةَ فى أثرنا . قال : وما نَصنع به ، أمض . فلما رآنا لا نقف صاح : يا حار ، اربعْ علىّ ساعةً . فوقفنا له . فـكلّمه بذلك الـكلام ، فرجع مَسروراً .

(١) ينجمها : يحملها نجوماً ، أى أقساطاً .

(٢) هذه رواية التجريد . ورحل البعير : وضع عليه الرحل . وفى غير التجريد : «ارحل بنا» .

ودخل أوسٌ إلى منزله فقال لزوجته : أدعى لى فلانة ، أكبرَ بناته ، فأَتته ، فقال : يا بنية ، هذا الحارث بن عَوف سيّدٌ من سادات العرب قد جاءنى خاطباً ، وقد أردتُ أن أُزوِّجك منه ، فما تقولين ؟ فقالت : لا تَفعل ذلك . قال : ولم ؟ قالت : لأنّى امرأة فى وجهى رَدَّة (١) ، وفى خُلُقى بعض العُهْدة (٢) ؛ ولستُ بأَ بنة عمّه فيَرْعَى رَحِمى ، وليس بجارك فى البلد فيَسْتحى منك ، ولا آمنُ أن يَرى منِّى ما يكره فيُطلِّقنى ، فيكون علىّ فى ذلك ما فيه . فقال : قُومى بارك الله فيك ! أدعوا لى فلانةَ ـ لأَ بنته الوسطى ـ فدَعَوْها ، فقال لها مثلَ قوله لأُختها ، فأَجابته بمثلها ، فقالت : إنّى خَرقاء ، ولستُ صناعاً بيدى ، ولا آمن أن يَرى منِّى ما أكره فيطلِّقنى ، فيكون علىّ فى ذلك ما تعلم ، وليس بأَ بن عمٍّ فيرعى حقِّى ، ولا جارَك فى بلدك فيستحىَ منك . فقال : قُومى بارك الله فيك ! أدعوا لى بُهَيْسة . يريد الصُّغرى ، فأُتى بها ، فقال لها كما قال لهما . فقالت : أنت وذاك ، فقال لها : إنِّى قد عرضتُ ذلك على أُخْتَيْكِ فأَبَتاه . فقالت — ولم يذكر لها مقالتهما — : لكنِّى والله الجَميلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرقيقة خُلقاً ، الحَسِيبة أباً ، فإنْ طلَّقنى فلا أَخلف الله عليه بخَير . فقال : بارك الله عليك .

قال : ثم خَرج إلينا فقال : قد زَوَّجتك بُهَيسة بنت أوس ، قال : قد قَبلتُ . فأَمر أُمها أن تُهيئها وتُصلح من شأنها ، ثم أمر ببيتٍ فضُرب له وأَنزله إياه ، فلما أُدخلت إليه لبث هُنيهة ثم خرج إلىّ ، فقلت له : أفرغتَ من شأنك ؟ قال : لا والله ! قلت : وكيف ؟ قل : لما مددتُ يدى إليها قالت : مه ! أعند أبى وإخوتى ! هذا والله لا يكون !

قال : فأَمرنا بالرِّحلة ، فأُرتحلنا مرحلة بها ، فسِرْنا ما شاء الله ، ثم قال لى :

---

(١) الردة : القبح مع شىء من الجمال .

(٢) العهدة : الضعف .

تقدّم ، فتقدمتُ ، وعَدل بها عن الطريق . فما لَبِث الحارث من وقته أن لَحِقنى ، فقلت : أفرغت ؟ قال : لا والله . قلت : ولم ذاك ؟ قال : قالت : تَفعل بى كما يُفعل بالأَمة الجَليبة ، أو السبيّة الأَخيذة ! لا والله حتى تَنْحَر الجُزُر ، وتَذبح الغَنَم ، وتَدعو العرب ، وتَعمل ما يُعمل لمثلى . فقلت له : والله إنّى لأَرى هيئةً وَعقلا ، وإنى لأرجو أن تكون المرأةَ النَّجيبة إن شاء الله . فرحلنا حتى جئنا بلادنا ، فأَحضر الإبل والغَنَم ، ثم دخل عليها ، فلما خرج ، قلت : أفرغتَ ؟ قال: لا . قلت : ولم ذاك ؟ قال : دخلتُ عليها أُريدها، فقلت : قد أحضرنا من المال ماترَيْن . فقالت: والله لقد ذُكر لى من الشرف مالا أراه فيك : قلت : وكيف ؟ قلت : أتفرُغ لِنكاح النساء والعربُ تقتُل بعضُها بعضا ! ــ وذلك فى أيام حرب عَبس وذبيان ــ قلت : فتقولين ماذا ؟ قالت : أُخرج إلى هؤلاء القوم فأَصْلح بينهم ثم أرجع الى أهلك ، فلن يفوتك . فقلت : إنّى والله لأرى عقلاً وهمّة ، ولقد قالت قولا . قال : فأُخرج بنا . فخرجنا حتى أتينا القومَ ، فمشينا فيما بينهم بالصُّلح . فاصطلحوا على أن يحتسبوا القَتلى ، ثم يُؤخذ الفضلُ ممّن هو عليه . فحملنا عنهم الدِّيات ، وكانت ثلاثةَ آلاف بعير فى ثلاث سنين . فأنصرفنا بأجمل الذِّكر . فمُدح بذلك ، وقال زُهير قصيدته اللامية التى ذكرت ، وقال أيضاً قصيدته التى أولها :

* صحا القلبُ عن سَلْمَى وقد كاد لا يَسْلو *

يقول فيها :

تداركتُما الأحلافَ قد[1] ثُلَّ عَرْشُها وذُبْيانَ قد زَلَّت بأقدامِها النَّعْلُ

وحصل للحارث بذلك الشرفُ العظيم ، ورَجع فدخل بزوجته ، فولدت له بنين و بنات .

(١) الأحلاف : أسد وغطفان وطيّ . وثل عرشها : أى أصابها ما كسرها وهدمها وذهب بعزها .

من مدحه هرما

ومدح زُهير هرماً بقصائد كثيرة . منها قصيدتُه التى أولُها :

إنّ الخَليطَ أجدَّ البيْنَ فانفرقا ... وعُلِّق القلبُ من أسماءَ[1] ما عَلِقَا
وأخلفتْك ابنةُ البَكرىّ ماوعدتْ ... فأصبح الحبلُ منها واهناً[2] خَلَقا
قامتْ تبدّى بذى ضالٍ[3] لتحزُننى ... ولا محالَة أن يَشتاقَ مَنْ عَشِقا
بجيدِ مُغْـــزِلةٍ أدْماءَ خاذلةٍ ... من الظِّباء تُراعِى شادناً[4] خَرِقا

يقول فيها فى مَدح هَرِم :

قد جَعل المُبتغون الخيرَ فى هَرِم ... والسَّـــائلون إلى أبوابه طُرُقا
مَن يَلْقَ يوماً على عِلاّته هَرِماً ... يلق السماحةَ منه والنَّدى خُلُقا
لَيثٌ بِعَثَّرَ[5] يصطاد الرجالَ إذا ... ما الليثُ كذَّب عن أقرانه صَدَقا
يطعَنهُمُ ما ارتَموْا حتى إذا اطَّعنوا ... ضارَب حتى إذا ما ضارَبوا اعْتَنقا

وقال زُهير يذكر فَقْد سنان بن أبى حارثة . وكان فُقد فلم يُعرف له خبر، فذُكر أنه كان قد بلغ مائة وخمسين سنة، فذَهب على وجهه خَرَفاً . وقيل : استطارته الجنّ فذَهبت به ـ وقيل غير ذلك ـ :

إنّ الرزيّة لا رَزِيّةَ مثلُهـــا ... ما تَبتغى غَطفـــانُ يومَ أُضلَّتِ
إنّ الرِّكابَ لتَبتغى ذا مِرّةٍ ... بجَنُوبِ نَخْلَ إذا الشُّهورُ[6] أُحلَّت

---

(١) الخليط : المخالط . وأجد البين : اعتزمه وأخذ فيه . وانفرق : انقطع .
(٢) الحبل : العهد . والواهن : الضعيف . كالواهى . وبهذه الأخيرة جاء الديوان .
(٣) ذو ضال : موضع .
(٤) بجيد ، أى تبدى بجيد . ومغزلة : ظبية معها غزالها . وأدماء : خالصة البياض . وخاذلة : متخلفة عن الظباء . والخرق : الضعيف الصغير لا يقوى على شىء .
(٥) عثر : بلد .
(٦) المرة : العقل . ونخل : موضع . وهى رواية التجريد والديوان . وفى غيرها : « بجنوب نجد » . وأحلت : صارت حلالا .

يَنْعَيْن خَيرَ الناسِ عند شـــديدةٍ عظُمت مُصيبتُه هنـــاك وجَلَّت
ولَنِعم حَشْوُ الدِّرع كان إذا سطا نَهِلَت من العَلَقِ الرِّماحُ (١) وعَلَّت

ومن مدائح زُهير فى هَرِم :

لمن الدِّيارُ بقُنَّة الحِجْرِ أَقْوَين من حِجَج ومِن (٢) دَهْرِ
لَعِب الرِّياحُ بها وغَيَّرها بَعدى سَوافِي الرِّيح (٣) والقَطْرِ
دَع ذا وعَدِّ القولَ فى هَرِم خيرِ الكُهول وسَيِّد الحَضْر
لو كنتَ مِن شىءٍ سوى بَشَر كنتَ المُنوِّرَ (٤) ليلةَ البَدر
ولَنِعْم حَشْوُ الدِّرع أنت إذا دُعيت نَزالِ وُلِجَّ (٥) فى الذُّعْر
وأراك تَفْرِى ما خَلقت وبعـ ـضُ القوم يَخْلُق ثم لا (٦) يَفْرِى
أُثنِي عليك بما علمتُ وما أسلفتَ فى النَّجدات من ذِكْر (٧)
والسِّتْرُ (٨) دون الفاحشات وما يَلقاك دون الخَير مِن سِتر

وذُكر أن عُمر بن الخطّاب رضى الله عنه لما أُنشد هذا البيت الأخير، قال : ذاك رسُول الله صلّى الله عليه وسلم .

---

(١) العلق : الدم . والنهل : أول الشرب . والعلل : الثانى والثالث .
(٢) الحجر : حجران ، حجر ثمود ، وحجر اليمامة ، أولهما بالكسر والثانى بالفتح . وأقوى : خلا .
(٣) سوافى الريح : ما تسفيه . والرواية فى الديوان : « سوافى المور » . وهو التراب .
(٤) فى الديوان : « المنير لليلة » .
(٥) يقول : نعم لابس الدرع أنت ، إذا اشتدت الحرب وتزاحمت الأقران ، فتداعوا بالنزول عن الخيل والتضارب بالسيوف ، وكذلك كانوا يفعلون ، إذا ازدحموا فلم يمكنهم التطاعن تداعوا : « نزال » فنزلوا عن الخيل وتقارعوا بالسيوف .
(٦) الفرى : القطع . والخلق : التقدير والتهيئة للقطع . يقول : أنت إذا تهيأت لأمر مضيت فيه . والرواية فى الديوان : « ولأنت » مكان « وأراك » .
(٧) فى الديوان : « والذكر » مكان « من ذكر » .
(٨) فى الديوان : « الستر » دون « واو » .

بين عمر وبعض أولاد هرم فى شأن زهير

وقال عُمر رضى الله عنه لبعض أولاد هَرم: أنشدنى بعضَ ما مَدح به زهيرٌ أباك. فأنشده الأبيات المتقدِّمة. فقال عمر: إن كان ليُحسن فيكم القول. فقال: ونحن والله إن كُنَّا لنُحسن إليه العطيّة. فقال: ذَهب ما أعطيتُموه و بقى ما أعطاكم.

من حياء زهير من هرم

وذُكر أنَّ هرماً كان حَلف ألّا يمدحه زُهير إلا أعطاه، ولا يسأله إلا أعطاه، ولا يُسلِّم عليه إلا أعطاه: عبداً أو فرساً أو وليدة. فاستحيا زُهير ممّا كان يقبَل منه، فكان إذا رآه فى ملأ قال: عِمُو صباحاً غير هرم، وخيرَكم اُستثنيتُ.

بين عمر وابن زهير فى شأنه

وقيل: إنّ عمر رضى الله عنه قال لابن زُهير: ما فَعلت الحُلل التى كساها هَرِمٌ أباك؟ قال: أبلاها الدهر. قال: لكنّ الحُلل التى كساها أبوك هرماً لم يُبْلها الدَّهر.

استجاد عبدالملك شعره فى آل أبى حارثة

وذكر أنّ عبد الملك بن مروان قال: ما يضُر مَن مُدح بما مَدح به زُهيرٌ آل أبى حارثة من قوله:

عَلى مُكْثِريهم حَقُّ مَن[1] يَعتريهم ... وعند المُقلِّين السماحةُ والبَذْلُ

ألّا يَملك أمورَ الناس - يعنى ألا يكون خليفة - ومن هذه القصيدة:

وهل يُنبت الخطِّىَّ إلّا وشيجُه ... وتُغرس إلا فى مَنابتها[2] النَّخْل

ثم قال عبدُ الملك: ما تَرك فيهم زُهير غنيًّا ولا فقيراً إلّا مَدحه.

استجادة عثمان لشعره

وقيل:

أنشد عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه قولَ زُهير:

ومهما تكن عند امرىء من خَليقة ... وإن خالها تَخْفَى على الناس تُعْلَم

---

(١) يعتريهم: يقصدهم. والرواية فى غير التجريد والديوان: «رزق من يعتريهم».

(٢) الخطى: الرماح، نسبة إلى الخط: جزيرة بالبحرين. والوشيج: القنا. يعنى أنهم لا يلدون إلا كراماً.

فقال : أحسن زُهير وصَدق ! لو أنّ رجـــلا دَخل بيتاً فى جَوف بيت لتحدَّث به الناس . قال : وقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : لا تَعمل عملاً تكره أن يُتحدَّث به عنك .

تمثل عروة بن الزبير ببيت له فى استخفاف عبد الملك به

وذُكر أنّ عُروة بن الزبير كان لَحِق بعبد الملك بن مروان بعد قَتـــل أخيه عبد الله بن الزُّبير ، فـكان إذا دخل عليه منفرداً أكرمه ، وإذا دخل عليه وعنده أهلُ الشام اُستخفّ به . فقال له يوماً : يا أمـــير المؤمنين ، بئس المَزُور أنت ! تُكرم ضيفك فى الخَلاء وتُهينه فى الملأ . ثم قال : لله دَرُّ زهير حيث يقول :

فُخلِّى فى دِيارك إنّ قـــوماً متى يَدعُوا ديارَهمُ [1] يهونُوا

ثم اُستأذنه فى الرُّجوع إلى المدينة . فقَضى حوائجه وأذن له .

ذكره فى شعره غطفان وأخواله

وذُكر أنّ زُهيرا كان هو وأبوه وولده فى بنى عبد الله بن غَطفان ، فلذلك كان زَهير يذكُر فى شعره فَعالَ بنى مُرة وغَطفان ويُكثر مَدحهم . وكان زُهير فى الجاهليّه سيداً كثيرَ المال حليماً معروفاً بالورع . وكانت اُمرأته من بنى سَهم ابن عَوف بن سَعد بن ذُبيان .

هو وخاله فى ميراثه

وكان بَشامة بن الغَدير الشاعر خالَه ، وكان زهير منقطعاً إليه ، وكان يُعجبه شعره . وكان بشامة رجلاً مُقْعَداً ، ولم يكن له وَلد ، وكان مُكثراً من المال ، وكان أحزم الناس رأياً . وكانت غَطفان إذا أرادوا أن يغزُوا أتَوْه فاُستشاروه وصدَروا عن رأيه ، فإذا رَجعوا قَسموا له مثل ما يَقْسمون لأفضلهم ؛ فمن أجل ذلك كَثُر ماله . وكان أشعرَ [2] غطفان فى زمانه . فلما حضره الموتُ قسَم مالَه فى أهل بيته وبنى إخوته . فأتاه زُهير فقال : يا خالاه ، لو قسمتَ لى من مالك ؟ فقال : قد والله يا بنَ أُخت قسمتُ لك أفضلَ من ذلك وأجزله . قال : وما هو ؟ قال : شِعرى ورِثْتَنيـــه .

(١) ويروى : « فقرى فى بلادك ... * بلادهم » .

(٢) فى غير التجريد : « أسعد » .

وكان زُهير قبل ذلك قد قال الشِّعر، وكان أولَ ما قال. فقال له زُهير: الشعر شيء أنا قلتهُ فكيف تعتدّ به علىّ؟ فقال له بَشامة: ومِن أين جئتَ بهذا الشّعر! لعلّك ترى أنك جئتَ به من مُزَينة! لقد علمت العرب أنّ حَصارتها وعينَ مائها فى الشعر لهذا الحى من غَطفان، ثم لِى منهم، وقد ورثتَه عنّى! ثم أحذاه[1] نصيباً من ماله، ومات.

من شعر بشامة

و بشامةُ شاعر مُجيد، وهو الذى يقول:

ماذا[2] ترَيْن وقد قطَّعتنى قِطعاً ... ماذا من الفَوْتِ بين البُخل والجُودِ
إلّا يكُن وَرَقٌ يوماً أراح به ... للخابِطين فإنّى لَيِّنُ العُود

هو وأم أوفى

وذُكر أن أُم أَوفى، التى يذكرها زُهير فى شعره، امرأةٌ ولدت منه أولادا وماتُوا، وتزوّج بعد ذلك امرأة أخرى ـ وهى أم أبنيه: كعب، و بُجير ـ فغارت من ذلك أُم أَوفى وآذته، فَطلّقها، ثم ندم فقال فيها:

لعمرك والخُطوب مُغيِّراتٌ ... وفى طُول المُعاشرة التَّقالِى
لقد بالَيْتُ مَظْعَنَ أُمِّ أَوفى ... ولكنْ أُمُّ أَوْفى لا تُبالِى
فأمّا إذ نأيتِ فلا تقولِى ... لذِى صِهْرٍ أُذِلْتُ ولم[3] تُذَالِى
أَصبتُ بَنىَّ منك ونلْتِ منِّى ... من اللّذات والخُلَل الغَوالِى

رثاؤه لابن له عانته امرأة

وذُكر أنه كان لزُهير ابنٌ يقال له: سالم، جميل الوجه، حسن الشَّعر. فأهدى رجلٌ لزُهير بُرْدين، فلبسهما الفتى وركب فرساً له، فمرّ بامرأة من العرب يماء يقال له: الثُّنَاءة. فقالت: ما رأيتُ قطُّ كاليوم رجلاً ولا بُرْدين ولا فرسا! فعَثرت به الفرسُ فاندقّت عُنقه وعُنق الفرس وانشقّ البُردان. فقال زُهير يَرثيه:

(١) أحذاه: أعطاه.
(٢) فى غير التجريد: «ألا».
(٣) أذاله: هزله وأهانه.

رأتْ رجلاً لاقى من العيش غِبطةً ... وأخطأه فيها الأمور العظائمُ
وشَبّ له فيها بَنون وتُوبعتْ ... سَلامةُ أعوامٍ له وغَنائم
فأصبح مَحبُوراً يُنظِّر حولَه ... بِغِبْطَته لو أنّ ذلك دائم
وعندِى من الأيّام ما ليس عنده ... فقلتُ تعلَّم أنما أنتَ حالم
لعلّكِ يوماً أن تُراعِى بفاجِع ... كما راعنى يوم الثُّناءة سالم

الشعراء من قومه

وقيل :

كان لزُهير فى الشِّعر مالم يكُن لغيره ، كان أبوه شاعرا ، وخاله شاعرا ، وأخته سلمى شاعرة ، وأبناه كعب وبُجير شاعرين .

إسلام بجير وإسلامه وبردة النبى صلى الله عليه وسلم له حين وفد عليه

وكان بُجير وَفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم على يده ، ثم وَفد بعد ذلك كعب فمَدح النبىّ صلى الله عليه وسلم بالقصيدة المشهورة التى أولها : « بانت سعاد » وأجازه النبىُّ صلى الله عليه وسلم بُردته ، فاشتراها مُعاوية بن أبى سفيان منهم بأربعين ألفا ، وهى البُردة التى توارثها الخُلفاء إلى زمننا هذا .

شعر المضرب بن كعب بن زهير

وكان المُضرِّب بن كعب بن زُهير شاعراً أيضاً ، وهو القائل فى مُصعب ابن الزبير :

إنى لأحبسُ نَفسى وهى صاديةٌ ... عن مُصعبٍ ولقد بانت لىَ الطُّرُقُ
رُعْوَى عليه[1] كما أرعَى على هَرِم ... جَدِّى زُهير وفينا ذلك الخُلق
مَدْحُ المُلوك وسَعىٌ فى مَسرّتهم ... ثم الغِنى ويدُ المَدوح تَنطلق

(١) رعوى عليه ، أى بقيا عليه .

أخبار المرار الأسدى

نسبه

وهو المرّار بن سَعيد بن حَبيب بن خالد بن نَضلة بن الأَشْيم بن جَحْوان ابن فَقعس بن طَريف بن عمرو بن قُعين بن الحارث بن ثَعلبة بن ذُودان بن أَسد بن خُزَيمة بن مُدْركة بن اليأس بن مُضر بن نِزار .

أمه

وأُم المرّار بنتُ مروان بن مُنقذ ، الذى أغار على بنى عامر بَثْهلان، فقتَل منهم مائةً بحَبيب بن مُنقذ عمِّه ، وكانوا قتلوه .

من خلقه

وكان المَرّار قصيراً مُفرطَ القِصر ، ضئيل الجِسم .

مخضرم

وهو مُخضرم الدَّولتين . وقيل : إنه لم يُدرك الدولة العبّاسية .

هو والمساور فى التهاجى

وكان يُهاجى المُساوِرَ بن هند بن قَيس بن زُهير بن جَذيمة العَبسى . وفيه يقول المَرّار :

شَقِيتْ[1] بنو أسدٍ بهَجْو مُساوِر ... إن الشقىَّ بكُل حَبل يُخْنقُ

وفيه يقول مُساور :

ما سَرّنى أنّ أُمى من بنى أسد ... وأنّ ربِّى يُنَجِّينِي من النّارِ

أو أنّهم زَوّجونى من بناتهمُ ... وأنّ لى كُلّ يومٍ ألفَ دينار

الحرب بين فقعس وعبس وشعر المرار فى رثاء أخيه

وذُكر أنّ المرّار كان أتى حيًّا من بنى عَبس ، فوقَف على بعض بُيوتهم ، فجعل يُحدِّث نساءهم ويُنشدهن الشعر ، فأَنكر الرجالُ ذلك عليه ، وجرى بينه وبينهم كلام عظيم ، فوثبوا عليه وضَربوه وخرقوا ثيابَه وعَقروا بعيره . وانصرف من عندهم إلى قومه من بني فَقعس ، فأَخبرهم الخبَر ، فركبُوا معه حتى أَتوا بنى

(١) فى غير التجريد : « بنو سعد » .

عَبس ، فقاتلوهم فهزموهم . وقفأت بنو فَقعس من بنى عَبْس عيناً وقتلوا رجلا ، ثم انصرفوا . فحملت بنو فَقعس إلى بنى عبس مائتى بَعير وغَلَّظت فى الدِّية . ثم إن بدر بن سَعيد ، أخا المرّار ، قال : أتستوفى [1] بنو عبس حقَّها ! فعلام أترك ضَرْبَ أخى وعَقْرَ جمله ! وخَرج حتى أتى خيلاً [2] لبنى عَبس فى المرعى ، فرَمى بعضها فعَقره ، ثم انصرف . فقال المرّار : إنه والله ما يُقنعنى هذا ، ولكن أخرُج بنا . فخَرجا حتى أغارا على إبل لبنى عَبس فطرداها ، وتوجَّها بها نحو تَيماء [3] ، فلما كانا ببعض الطريق انقطع بِطانُ راحلة بدر ، فَنَدر [4] عن رَحْله . فقال المرّار : يا أخى ، أَطعِنى وانصرف ودَع هذه الإبل فى النار . فأَبَى عليه . ثم سارا ، فلما كانوا ببعض الطريق عَرض لهما ظَبى أَعْضبُ [5] أحدِ القَرنين . فقال المرّار لبَدر : قد تطيّرتُ من هذا السَّفر ، ولا والله ما نَرجع من هذا السَّفر أبدا ! فأَبى عليه بَدر . فتفرَّقت عبس فِرْقتين فى طلب الإبل ، فعمدت فِرقةٌ إلى وادى القُرى ، وفرقة إلى تَيماء ، فصادفوا الإبل بتيماء تُباع ، فأَخذوا المرّار وبَدْراً فرفعوهما إلى الوالى . وعُرفت سِمات عَبْس على الإبل ، فدُفعت إليهم . ورُفع المَرّار وأخوه إلى المدينة فضُربا وحُبسا ، فمات بَدر فى الحَبس . فكلَّمت عِدَّةٌ من قريش زيادَ بن عبد الله النَّصْرىّ فى المرّار ، فخلاّه . وقال المرّار يرثى أخاه ، وهو فى الحَبس ، بقصيدة أولها :

ألا يا لقومى للتجلُّد والصَّبرِ ... وللقَدَر السارى إليكَ وما تَدرى
وللشىء تَنْساه وتذكُر غيره ... وللشىء لا تَنساه إلا على ذُكْر

يقول فيها :

ألاَ قاتل اللهُ المقاديرَ والمُنَى ... وطيراً جرتْ بين السُّعافات والحِبْر [6]

(١) فى غير التجريد : « قد استوفت » . (٢) فى غير التجريد « أجمالا » .
(٣) تيماء : فى أطراف الشام ، بين الشام ووادى القرى .
(٤) ندر : سقط . (٥) أعضب : مكسور .
(٦) السعافات والحبر : موضعان . والرواية فى غير التجريد وياقوت : « السعافات والحجر » .

وقاتل تَكْذيبي العِيافَةَ بعد ما زجرْتُ فما أغنَى اعتيافى ولا زَجْرى

ومنها :

تُذكِّرنى بدراً زَعازعُ (١) لَزْبةٍ إذا عَصفتْ إحدى عشيّاتها الغُبْرِ
إذا شَوْلُنا لم نُؤْتَ منها بِحِلْبٍ قَرَى الضيفَ منها بالمُهنَّد ذى الأَثْر
وأضيافُنا إن نَبَّهونا ذكرتُه فكيف إذا أنساه غابرةَ الدَّهر
إذا سَلَّم السارى تَهلّل وجهُه على كُل حالٍ من يَسار ومن عُسْر
تذكّرتُ بدراً بعد ما قيل (٢) عارفٌ لِمَا نابه يا لَهفَ نَفسى على بَدْر
إذا خَطرتْ منه على النَّفس خَطرةٌ مَرتْ دمعَ عَيْنى فاستهلّ (٣) على نَحرى
وما كُنت بَكَّاءً ولكن يَهيجنى على ذِكْره طِيبُ الخلائق والخِبْر
أَعينَىّ إنّى شاكرٌ ما فعلتما وحُقَّ لما أبْليتُمانِى بالشُّكر
سألتُكما أن تُسْعِدانى فجُدْتما عَرانِينَ بالتَّسْجامِ باقيةَ (٤) القَطْر
فلمّا شَفانى اليأسُ عنه بسَلوة وأعذرتُما لا بَلْ أجلُّ من العُذْر
نهيتُكما أن تُسعدانى فكنتما صَبُورَيْن بعد اليأس طاويتَىْ (٥) غُبْر

شعره فى الحبس وهو الذى فيه الغناء

وقال المَرّار فى الحَبس قصيدتَه التى أولُها :

عَزفتَ (٦) ولم تَصْرِم وأنت صَرومُ وكيف تَصابى مَن يُقال حَليمُ
صَددتَ فأطْولتَ (٧) الصُّدودولاأرى وِصالاً على طُول الصُّدود يَدُوم

وهذا الشعرُ هو الذى فيه الغناء ، وافتتح به أبو الفرج أخبار المرّار .

(١) لزبة ، أى سنة شديدة . والرواية فى غير التجريد ومعجم البلدان : « حجرة » .
(٢) عارف : صابر . (٣) مرت دمع عينى : أسبلته . واستهل : سال .
(٤) العرانين : أوائل المطر . ورواية هذا الشطر فى أصول الأغانى والشعر والشعراء :
* عوانين بالتسجام باقيّ قطر *
(٥) الغبر : بقية الدمع . قال أبو الفرج : « يقول : طويتما أغبار دمعكما . والأغبار : البقايا ، كأغبار اللبن » . (٦) عزفت عن الشىء ، إذا تركته وأبته نفسك .
(٧) أطولت : أطلت ، قالها للضرورة . يقول : لم تصرم صرم بتات ، ولكن صرم دلال.

أخبار النابغة الذبيانى

نسبه

وهو زِياد بن مُعاوية بن ضِباب بن جابر[1] بن يَربوع بن غَيظ بن مُرَّة بن عَوف بن سَعد بن ذُبيان بن بَغيض بن رَيث بن غَطفان بن سَعد بن قَيس عَيلان بن مُضر بن نِزار . ويُكنى : أبا أُمامة ، لقوله :

* فقد نَبغت لهم منّا شُؤونُ *

طبقته فى الشعر

وهو أحدُ الأشراف الذين غَضَّ الشعرُ منهم . وهو من الطبقة الأُولى المقدَّمين على سائر الشُّعراء .

بينه وبين حسان

وذُكر أن حسان بن ثابت الأنصارى قال للنابغة : أنا أشعر منك . فقال له النابغة : يابن أخى ، أنت لا تُحسن أن تقول :

فإنك كاللَّيـــل الذى هو مُدركى ... وإن خِلْتُ أنّ المُنتأَى عنك وَاسعُ

خَطاطيفُ حُجْنٌ فى حِبـــالٍ مَتينةٍ ... تَمُدُّ بهـــا أيدٍ إليك[2] نَوازع

فسكت حسّان ولم يُجب .

شعره الذى فيه الغناء

وهذان البيتان مع بيت قبلهما ، وهو :

فإن كُنت لا ذا الضِّغْن عنّى مكذِّباً ... ولا حَلِفى عند الـــبَرَاءة نافع

هو الشعر الذى فيه الغِناء، وأفتتح به أبو الفرج أخبار النابغة . وهو من قصيدة يعتذر فيها النابغةُ إلى النعمان بن المُنذر .

حديث غضب النعمان وإعتذاره إليه

وكان السبب فى أعتذاره بهذا الشِّعر أن النابغة كان أثيراً عند النعمان بن المُنذر

(١) هذه رواية التجريد والتبريزى على المعلقات . وفى غيرها : « جناب » .

(٢) حجن : معوجة . ونوازع : جواذب .

خاصًّا به ، وكان من نُدمائه وأهل أُنسه ، فرأى المُتجرِّدة زوجَة النعمان يوماً وغَشِيها شَبِيهاً بالفُجاءة ، وسَقط نَصِيفُها ، فاستترت بيدها وذِراعها ، وكادت ذراعها تستر وجهَها لعَبالتها وغِلَظها . فقال النابغةُ فيها قصيدتَه التى أولها :

أمن آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مُغتدِى ... عَجلانَ ذا زادٍ[1] وغيرَ مُزوَّدِ

زَعم البوارحُ أنّ رِحلَتنا غداً ... وبذاكَ تَنْعابُ الغُرابِ[2] الأَسود

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به ... إن كان تفريقُ الأَحبَّة فى غد

أَزِفَ الترحُّلُ غيرَ أنّ رِكابَنا ... لما تَزُلْ بِرِحالنا وكأنْ قَد

فى إثْر غانيةٍ رمتْكَ بسَهمها ... فأَصاب قلبَك غيرَ أنْ[3] لم تُقصِد

بالدُّر واليـاقوت زُيِّن نَحرُها ... ومُفصَّلٍ من لُؤلؤ وزَبَرْجد

سَقط النَّصيفُ[4] ولم تُرد إسقاطه ... فتناولتْه وأتّقتنا باليَد

بمُخضَّبٍ رَخْصٍ كأنّ بَنانَه ... عَنَمٌ على أغصانه[5] لم يُعْقِد

وبفَاحِمٍ رَجْلٍ أثيثٍ نَبْتُه ... كالكَرْم مال على الدِّعام المُسْنَد

نظرتْ إليك بحاجة لم تَقضها ... نَظَرَ السَّقيم إلى وُجوه العُوَّد

قيل : فأَنشد هذه القصيدةَ مُرَّةَ بن سَعد القُريعىّ . فأَنشدها مُرةُ النُّعمانَ ابن المُنذر . فامتلأ غيظاً وأوعد النابغةَ وتهدَّده . فهَرب منه وأتى قومَه ، ثم شَخص إلى مُلوك غَسّان بالشأم فامتدحهم . وقيل : إنّ عِصَام بن شهْبَر الجَرْمِىّ ، حاجبَ النُّعمان ، أَنذره وعرَّفه ما يُريده النُّعمان ، وكان صديقَه ، فهرب . وعصام هذا الذى يقول فيه الراجز :

---

(١) الزاد ، هنا : التحية . (٢) تنعاب الغراب : صياحه .

(٣) لم تقصد : لم تقتل . يقال : أقصد الشىء ، إذا رماه فمات مكانه .

(٤) النصيف : الخمار .

(٥) العنم : ضرب من الشجر له نور أحمر ، تشبه به الأصابع المخضوبة . ولم يعقد ، أى لم يغلظ ولم ييبس .

نَفسُ عِصامٍ سوَّدت عِصامَا وعَلَّمتـــه الكَرَّ والإقدامَا
وجعلتْه مَلِـكاً هُمَـــامَا

وقيل : كان السببُ فى هَرب النابغــة من النُّعمان أنَّ عَبد القَيس بن خُفاف التَّميمىّ، ومُرة بن سَعد بن قُريع السَّعدى، عَمِلا هجاءً فى النُّعمان على لسانه ، وأنشداه النُّعمان . فمنه أبياتٌ[1] يقال فيها :

مَلِكٌ يُلاعب أُمَّه وقَطِينَــه رِخْوُ المفَاصل أَيرُهُ كالمِرْوَدِ

ومنه :

قَبَّح الله ثم ثَنَّى بلَعْنٍ وارثَ الصائغ الجبــانَ الجَهُولا
مَن يَضُرُّ الأَدْنَى و يعْجِز عن ضَـ ـرِّ الأَقاصى ومَن يَخُون الخَليلا
يَجمع الجيشَ ذا الألوف و يغزو ثم لا يَرزأ العــــدوَّ فَتيــلا

يعنى بوارث الصائغ : النعمانَ . وكان جدُّه لأُمه صائغاً بفَدَكَ[2] ، يقال له : عطية : وأُمُّ النُّعمان سلمى بنت عطيّــة .

وذكر أن مُرة بن سَعد ، الذى وشَى بالنابغة ، كان له سَيف قاطع يقال له : ذو الرِّيقة ، من كثرة فِرِنده وجَوهره، فذَكره النابغةُ للنُّعمان ، فأَخذه ، فاضطغن ذلك مُرةَ حتى وشَى به إلى النعمان وحَرَّضه عليه .

وقيل :

كان السبب فى هَرِ به أنه كان هو والمُنخَّل بن عُبيد بن عامر اليَشكرىّ جالسَيْن عند النُّعمان ، وكان النعمان ذميماً أبرش[3] قبيحَ المنظر ، وكان المُنخَّل من أجمــل العرب ، وكان يُرْمَى بالمُتجرِّدة زوجة النعمان . و يُحدِّث العربُ أن أبنى النُّعمان كانا

(١) فى غير التجريد : « وأنشد النعمان منه أبياتاً » .
(٢) فدك : قرية بالحجاز من نواحى خيبر .
(٣) الأبرش : الذى فى وجهه نقط مختلفة الألوان .

من المُنخَّل . فقال النُّعمان : يا أبا أُمامة ، صِفْ المُتجرِّدة فى شِعرك . فقال قصيدته التى وَصفها فيها ، ووَصف بطنَها ورَوادِفها وفَرجها . فلَحقت المُنخَّلَ من ذلك غَيرةٌ ، فقال للنُّعمان : ما يَستطيع أن يقول هذا الشِّعر إلا من جَرَّب . فَوقر ذلك فى نفس النُّعمان ، و بَلغ النابغةَ ، فخافه وهَرب فصار فى غَسّان .

المنخل وهواه لهند بنت عمرو ومقتله

وقيل : إنّ المُنخَّل هذا كان يَهوى هِنْداً بنت عمرو بن هِند ، وفيها يقول :

ولقد دخلتُ على الفتـــا ... ـةِ الخِـدْرَ فى اليوم المَطـير
الـكاعِب الحَســناء تَرْ ... فُل فى الدِّمَقْس وفى الحَرير
فدفعتُهـــا فتـــدافعت ... مَشْىَ القَطاةِ إلى الغَـــدير
ولَثَمتُهـــا فتنفَّست ... كتنفُّس الظَّبْى[1] البَهِـير
ولقـــد شَربتُ من المُدا ... مة بالـكَبـير و بالصَّـــغير
فإذا سَكرتُ فإنـنى ... ربُّ الخَوَرْنق والسَّـــدير
و إذا صَحـــوتُ فإننى ... ربُّ الشُّوَيْهة والبَعـــير
ياهِنْـــدُ هل من نائلٍ ... ياهِنْـــد للعَانى الأَسـير
وأُحبُّهـــا وتُحبـنى ... ويُحب ناقَتُهـا بعـــيرى

و بلغ عمرَو بن هند ذلك ، فقتله .

عود إلى حديث النابغة مع النعمان

قيل : فلما صار إلى غسَّان نَزل بعَمرو بن الحارث الأَصغر بن الحارث الأعرج ابن الحارث الأكبر بن أبى شَمِر . وأُم الحارث الأَعرج ماريةُ بنت ظالم بن وَهْب ابن الحارث بن مُعاوية بن ثَور بن مُرتع[2] الـكِنْدية . وهى ذاتُ القُرْطين التى يُضرب بها المثلُ ، فيقال لما يُغْلَى به الثمن : خذه ولو بقُرطَىْ مارية . وأُختها هِنْد

(١) البهير : المتتابع النفس إعياء وتعبا .
(٢) هو كحسن ، وكحدث ، بالتشديد فى الثانى . (انظر القاموس وشرحه) .

الهُنود ، امرأة حُجْر آكل المُرَار . وإياها عَنى حسّان بن ثابت بقوله فى جَبَلة ابن الأَيهم :

أولاد جَفْنَةَ حول قَبر أبيهمُ ... قَبْرِ ابن ماريةَ الجَوادِ المُفْضِلِ

مدحه عمرو بن الحارث وأخاه النعمان

فمَدحه النابغةُ ومَدح أخاه النُّعمان ، ولم يَزل مُقيماً مع عمرو حتى مات ومَلك أخوه النُّعمان ، فصار معه إلى أن اُستطلعه[1] النُّعمان بن المنذر ، فعاد إليه . فممّا مَدح به النابغةُ عمرو بن الحارث قصيدتَه التى أولُها :

كِلينى لهمّ يا أُميمَةَ ناصبِ ... وليلٍ أُقاسيه بَطىء[2] الكَواكِبِ

وصَدْرٍ أَراحَ الليلُ عازبَ هَمِّه ... تضاعف فيه الحُزْنُ من كُل[3] جانب

تَقاعس حتى قلتُ ليس بمُنْقضٍ ... وليس الذى يَهْدِى النُّجومَ[4] بآئب

علىّ لِعمرٍو نِعمةٌ بعد نِعْمة ... لوالده ليست[5] بذاتِ عَقارب

ومنها :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفهم ... بهنّ فُلولٌ من قِراع[6] الكَتائب

إذا اُستُنزِلوا عنهنّ للطعن أَرقلوا ... إلى الموتِ إرقالَ الجِمال[7] المَصاعب

---

(١) أى طلب صعوده إليه .

(٢) كلينى : دعينى . وناصب : متعب . وبطىء الكواكب : طويل ، فلا تجرى كواكبه ولا تغور .

(٣) أراح : رد . أى إن هذا الليل قد رد إليه ما عزب من همه بالنهار ، لأنه يتعلل نهاراً بمحادثة الناس ، فإذا خلا بالليل راح إليه همه .

(٤) تقاعس : تأخر . والذى يهدى النجوم : أولها ، إذ هادى كل شىء ما يتقدمه . أى إن أول النجوم غير راجع إلى مسقطه ومغيبه . وقيل : المراد بهادى النجوم : الشمس ، لأنها تتقدم النجوم فى المغيب . وكونها غير آئبة ، أى غير راجعة إلى مشرقها ؛ فكأنه ليل لا نهار بعده .

(٥) ليست بذات عقارب ، أى لا يكدرها ولا يمنها .

(٦) فلول : ثلوم . والقراع : المجالدة والمضاربة .

(٧) الإرقال : مشى سريع . والمصاعب : الإبل لم يمسسها الحبل وإنما تقتنى للفحلة .

شعره فى النعمان وهو غلام

وذُكر أنَّ النابغـةَ نظر إلى النُّعمان بن الحارث أخى عمرو ، وهو يومئـذ غلام ، فقال :

هذا غلامٌ حَسن وجهُـــه ... مُقتبِلُ الخـيرِ سريعُ التَّمام
للحارث الأكبر والحارث الـ ... أصغر والأعرج خـير الأنام
ثم لهنـدٍ ولهنـــدٍ فقد ... أسرع فى الخَيرات منـه إمام
خمســـةُ آباء هُم ماهُمُ ... همخيرُمن يَشرب صَوبَ الغمام (١)

من شـعره فى الاعتذار

وممَّا اُعتذر به النابغةُ ، وهو من أجود الشعر قوله :

حَلَفتُ فلم أترُك لنفسك رِيبـةً ... وليس وراء الله للمَرء مَـذْهَبُ
ولستَ بمُستَبقٍ أخاً لا تلُمَّـه ... على شَعَثٍ أىّ الرِّجال المُهذَّب
لئن كنتَ قد بُلِّغت عنِّى جنايةً ... لمُبلغُك الواشى أعقُّ وأكذب

حسان والنعمان فى شـأنه

وحَـكى حسّان بن ثابت الأنصارى رحمـه الله قال : قدمتُ على النُّعمان بن المُنذر وقد اُمتدحتُه ، فأتيتُ حاجبَه عِصاماً فجلستُ إليه . فقال : إنى لأرى عربيًّا ، أفمن الحجـاز أنت ؟ قلت : نعم . قال : فـكُنْ قَحْطانيًّا . قلت : فأنا قَحطانىّ . قال : فـكُن يثربيًّا . قلت فإنّى يثربىّ . قال : فـكُن خَزرجيًّا . فقلت: فإنّى خَزرجى . قال : فـكن حَسّان بن ثابت . قلت : إنّى حسّـان بن ثابت . قال : جئتَ بمِدْحة الملك ؟ قلت : نعم . قال فإنى سأُرشدك إذا دخلتَ إليه ، فإنه سيسألك عن جَبَلة بن الأيهم ويسُبّه ، فإياك أن تُساعده على ذلك ، ولـكن أَمِرَّ ذِكْره إمْراراً لا تُوافق فيـه ولا تخالف ، وقل : ما دُخول مثلى أيها الملك بينك وبين جَبلة بين الأيهم، وهو منك وأنت منه ! وإن دعاك إلى الطَّعام فلا تؤاكله ، وإن أقسم عليك فأَصِبْ منـه اليسيرَ إصابة مُبرٍّ قَسَمَه مُتشرِّف بمُؤاكلته ،

(١) الرواية فى الشعر والشعراء : « صفو المدام » .

لا أكلَ جائعٍ سَغِب ، ولا تَبدأه بإخبار عن شىء حتى يكون هو السائل لك ، ولا تُطل الإقامة فى مَجلسه . فقلت : أحسنَ الله رِفْدك ! قد أوصيتَ واعياً . ودخل ، ثم خرج إلىّ فقال : أُدْخُل . فدخلتُ ، فسلّمت وحيّيت تحيةَ الملك . فجارانى من أمر جَبلة ما قاله لى عِصام ، كأنّه كان حاضراً ، وأجبتُ بما أمرنى به . ثم أستأذنتُه فى الإنشاد فأنشدته . ثم دعا بالطعام ، ففعلتُ ما أمرنى به عصام ، وبالشراب ففعلت مثلَ ذلك . وأمر لى بجائزة سنيّة ، وأذن لى ، فخرجتُ . فقال لى عصام : بقيتْ علىّ كلمةٌ واحدة لم أُوصك بها : قد بلغنى أنّ النابغة الذُّبيانى قادم عليه ، فليس لأحدٍ منه سواه حظٌّ ، فأستأذنْ حينئذ وأنصرفْ مُكرَّماً خير من أن تنصرف مَجْفُوًّا . فأقمتُ ببابه شهراً ، ثم قدم عليه الفَزاريّان ، وكان بينهما و بين النعمان دُخْلل — أى خاصّة — وكان معهما النابغةُ قد أستجار بهما ، وسألهما مُساءلة النُّعمان أن يرضى عنه ، فضَرب عليهما قُبة من أَدم ، ولم يشعر بأنّ النابغة معهما ، ودَسّ النابغة قينةً تُغنّيه بشعره :

* يا دارَ ميّة بالعلياء فالسَّند *

فلما سَمع الشعر قال : أُقسم بالله إنه لشعر النابغة ! فأُخبر أنه مع الفزاريَّيْن . وكلّماه فيه فأمّنه .

ثم خَرج النُّعمان فى غِبّ سَماء ، فعارضه الفَزاريّان والنابغةُ بينهما قد خُضِب بحِنّاء وقَنَأ[1] خضابُه . فلما رآه النُّعمان قال : هى بدَمٍ كانت أحرى أن تُخضب . فقال الفزاريّان : أبيت اللعن ! قد أجرناه ، والعفو أجمل . فأمّنه . وأستنشده أشعاراً بعد ذلك .

(١) قنأ خضابه : اشتدت حمرته .

قال حسَّان بن ثابت : فحسدتُه على ثلاث ، لا أدرى على أيَّهن كنتُ أشدَّ : على إدناء النُّعمان له بعد المُباعدة ، ومُسامرته[1] له و إصغائه إليه ، أم على جَودة شعره ، أم على مائة بعير من عَصافيره[2] أمَر بها له .

وقيل لأبى عمرو : أفمن مَخافة النُّعمان أمتدحه النابغة وأتاه بعد هَر به منه ، أم لغير ذلك ؟ قال : لا ، لعمرُ الله ما لِمَخافته فَعل ، إنْ كان لآمناً من أن يُوجِّه إليه النعمانُ جيشاً ، وما كانت عشيرته لِتُسلمه لأوَّل وَهلة ، ولكنّه رَغب فى عَطاياه وعَصافيره .

من يساره

وكان النابغة يأكل و يَشرب فى آنية الفضّة والذهب ، من عَطايا النُّعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غيرَ ذلك .

سبب آخر فى رجوعه إلى النعمان

وذُكر أنّ السببَ فى رجوعه إلى النُّعمان بعد هَر به منه أنّه بلغه أنه عليلٌ ، فأقلقه ذلك وما خافه عليه ، وأشفق من حُدوثه به ، فصار إليه ، فألفاه محمولاً على سرير يُنقل ما بين الغَمْر وقُصور الحِيرة . فقال لعصام حاجبه :

ألمْ أقسم عليك لتُخْبرَنّى ... أمحمولٌ على النَّعش الهُمامُ

فإنّى لا ألومك[3] فى دُخولى ... ولكنْ ما وراءك يا عصام

فإن يَهلك أبو قابُوس يَهْلِك ... رَبيعُ الناس والشَّهر[4] الحَرام

و نُمْسِك بعده بذِنَاب عيشٍ ... أَجبِّ الظَّهرِ ليس له سَنام

(١) فى بعض الأصول : « مسايرته » .

(٢) العصافير : إبل نجائب كانت للملوك .

(٣) أى لا ألومك فى ترك الإذن لى فى الدخول ، ولكن أخبره بكنه أمرى .

(٤) يريد أنه كالربيع فى الخصب لمجتديه ، وكالشهر الحرام لجاره ، لا يوصل إلى من أجاره كما لا يوصل فى الشهر الحرام إلى أحد .

وكانت ملوك العرب إذا مَرض أحدٌ منهم حملتْه الرجال على أكتافها يتعاقبونه ، لأنه عندهم أوطأ من الأرض .

من داليته ومن قصيدة النابغة الدالية التى يعتذر فيها :

نُبئت أنّ أبا قابوس أوعدنى ... ولا قَرار على زأرٍ من الأسدِ

مَهلاً فداءٌ لك الأقوامُ كلهمُ ... وما أُثَمِّر من مالٍ ومن وَلد

إن كنتُ قلتُ الذى بُلِّغْتَ مُعتمداً ... إذاً فلا رفعتْ سَوطى إلىّ يدى

obeikandl.com

[ج ١٠] (*) أخبار أوس بن حجر

نسبه

هو أوس بن حَجَر بن مالك بن حَزْن بن عُقيل بن خَلَف بن نُمَير بن أسد بن عمرو بن تميم بن أُدّ بن طابخة بن اليأس (١).

وكان شاعراً من شُعراء الجاهليَّة وفُحولها.

طبقته

وجَعله أبو عُبيدة من الطبقة الثالثة وقرنه بالحُطيئة ونابغة بنى جَعدة.

وكان أبو عمر يقول: أوس بن حَجر شاعر مُضر، حتى أسقطه النابغةُ وزُهير. فهو شاعر تَميم فى الجاهليَّة غيرَ مُدافَع.

مدحه فضالة

وذُكر أنّ أوساً هذا كان غزلاً مُولَعاً بالنساء، فخَرج فى سَفر حتى إذا كان بأرضِ لبنى أسد، فبينا هو يسير ظلاماً إذ جالت به ناقتُه فصرعتْه، فأندقّت فَخِذاه، فبات مكانَه، حتى إذا أصبح غدا جَوارى الحىّ يجتنين الكَمْأة وغيرَها من نَبات من الأرض، والناسُ فى ربيع. فبينا هُنّ كذلك إذ بَصُرن بناقته تَجُول وقد عَلِق زمامها بشجرة وأبصرْنَه مُلْقًى، ففزِعْنَ فهرَبْن. فدعا بجارية منهنّ فقال لها: من أنت؟ فقالت: أنا حليمةُ بنت فَضَالة بن كَلَدة. وكانت أصغرهن. فأعطاها حَجَراً وقال لها: اذهبى إلى أبيك فقولى: ابنُ هذا يُقرئك السلام. فأتته فأخبرته. فقال: يا بُنَية، لقد أتيتِ بمَدحٍ طويل أو هجاء طويل.

(*) مر ابن واصل عن ترجمتين قصيرتين: إحداهما للحارث بن حلزة: والثانية لعمرو بن كلثوم. فلم يذكر منهما شيئاً ولم يذكر علة ذلك. كما أغفل شيئاً آخر عن الهجاء بين جرير والأخطل وسببه، وقد تحدث عنه أبو الفرج فى غير إطالة.

(١) وساق نسبه ابن حزم فى «جمهرة أنساب العرب» (ص ٢٠٠) فقال: أوس بن حجر بن عتاب بن عبد الله بن عدى بن نمير بن أسيد بن عمرو بن تميم «وتميم هو ابن مر بن أد بن طابخة».

ثم احتمل هو وأهلُه حتى بنى عليه بيتَه حيث صُرِع ، وقال : لا أتحوَّل أبداً حتى تَبرأ . فأقام عنده وحليمةُ تقوم عليه حتى استقلّ وبرىء . فمدحه مدائحَ كثيرةً .

رثاؤه فضالة

ورثاه لما مات بقصيدة أوَّلُها :

* يا عينُ لا بُدّ من سَكْبٍ وتَهْمَالِ *

يقول فيها :

أبَا دُلَيجـــةَ مَن تُوصى بأرمـــلة ... أم من لأشعثَ ذى طِمْرَيْن مِحْـالِ

أبا دُليجـــة من يكفى العشـــيرةَ إذ ... أمسَوْا من الأمر فى لَبْس و بَلْبـال

لا زال مِسْكٌ وريحانٌ له أَرَجٌ ... على صَـداكَ[1] بصافِى اللَّون سَلْسَال

شعره الذى فيه الغناء

والشعر الذى فيه الغناء وافتتح به أبو الفرج أخبار أوس بن حَجر، هو :

إنّى أُرِقْتُ ولم يأْرَق معى صـــاحِ ... لمُسْتَكِفٍّ[2] بُعَيْد النَّوم لَوَّاحِ

دانٍ مُسِفٍّ فُوَيْقَ الأرضِ هَيدبُه ... يكاد يدفعـــه مَن قام[3] بالرَّاح

إنْ أَشربِ الخمرَ أو أُغلى بهـا[4] ثمناً ... فلا مَحـــالةَ يوماً أنّنى صـــاحى

(١) الصدى ، هنا : الجثة حيث تأوى فى قبرها . وصافى اللون : ماء المطر . يدعو لقبره بالسقيا .

(٢) مستكف : مستدير .

(٣) مسف : قد أسف على وجه الأرض ودنا وقرب . والهيدب : ما يرى كالمتعلق بالسحاب. يصف السحاب بالثقل حتى إن القائم يكاد يمسه براحته .

(٤) فى التجريد « أو أرزأ لها ثمناً » .

أخبار ورقاء بن زهير العبسي

ومقتل أخيه شأس ، وأبيه زهير ، وخالد قاتل أبيه

نسبه

هو وَرقاء بن زُهير بن جَذيمة بن رَوَاحة بن رَبيعة بن مازن بن الحارث بن قُطَيعة بن عَبْس بن بَغيض بن رَيث بن غَطَفان بن سَعد بن قَيس عَيلان بن مُضر ابن نزار .

مقتل شأس

وذُكر أنّ شأس بن زُهير أقبل من عند الملك النعمان بن المُنذر ، وكان بينه و بين أبيه زُهير صِهْر ، كانت ابنةُ زُهير عنده . فأقبل شأسٌ من عنده وقد حَباه الملك وكساه أفضلَ الحِباء . وممّا حَباه به قطيفةٌ حمراء ذات هُدب ، وطِيب. فمرّ بحِباء لرِياح بن الأشَلّ ،(١) أحدِ بنى عُبيد بن سَعد، فيه أهلُه ، وذلك وقتَ الظَّهيرة . فألقى شأسٌ رَحلَه بفنائه ثم قعد يُريق الماء ، وامرأة رِياح قريبةٌ منه . فقال رِياح لامرأته : أَنْطِينى (٢) قَوْسى . فألقت إليه قوسَه وسهماً قد انتزعت منه نصلَه لئلّا يقتُلَه ، فرماه بالسَّهم فوقع بين فَقارتين من ظهره ففَصلهما ، وخَرّ ساقطاً . فحفَر له حَفَراً فدَفنه فيه ، ونَحر جملَه فأكله . فأقبلت عَبس تقُصّ أثره ، فلم يتَّضح لهم أمرُه ، فمكثوا كذلك ما شاء الله حتى رأَوْا امرأة رِياح باعت بعُكاظ قطيفةً حمراء ، أو بعض ما كان من حِباء الملك . فتيقّنوا حينئذ أنّ رِياحاً قتله . ولَحِق رياحٌ بخاله من بنى الطّمّاح من بنى أسد بن خُزَيمة ، فكان يكون اللَّيل عنده ، و إذا أحسّ بالصُّبح ذَهب يتصيّد الأَرْوَى . فأصبح ذاتَ يوم عند

---

(١) هذا رواية التجريد و الكامل لابن الأثير (١ : ٤١١) . وفى غيرها : « رياح بن الأسك » .

(٢) أى أعطينى .

خاله ، و بنو عَبس تُريغه [١] ، فركب خالُه جملاً وأركبه وراءه . فبينما هما كذلك إذ دنت عَبس ، فقالوا : هذه خيل عَبس تطلبك . فقصد رِياحٌ شجرةً فحفر له حُفرة فى أصلها وتوارَى فيها . ولقيت الخيلُ خالَه فقالوا : هل كان معك أحدٌ ؟ قال : لا . قالوا : فما هذا المَركب خلفك ؟ لتخبّرنا أو لنقتلنّك . قال : لا كذِبَ، هو رِياح ، ودلّهم عليه . فلما دنَوْا منه، قال الُحصين بن زُهير بن جَذيمة ، أخوشأس، وابن عمه الُحصين بن أسد بن جَذيمة : يا بنى عَبس ، دعُونا وثأرَنا . فَخَنَسُوا [٢] عنهما . وأخذ رياح نعلَيْن فصيَّرهما على صدره حِيالَ كبدِه . وحمل عليه أحدُهما فطَعنه فأزلّت النعلُ الرُّمحَ وأخذ الرُّمحُ جَنْبَ شاكِلته [٣] فشَلّه . ورماه رياحٌ مولِّيًا فجذم صُلْبَه ، ثم جاء الآخر فطَعنه، فلم يُغْنِ شيئاً ،ورماه رياحٌ مولِّيا فصرعه. فقالت عَبس : إلى أين تذهبون ؟ إلى هذا ؟ والله ليقتلنّ منكم عدَد قوائمه [٤] ، وقد جرحاه فسيموت : وأخذ رياحٌ رُمحيهما وسَلَبَيْهما وخَرج يشتدّ ، فرأته عجوزٌ من بَغيض وقد دَنا من [٥] حوض ماء ليشرب ، وهو شديد العَطش ، فطمعتْ فيه ، فقالت : أُستأسر . فقال : دَعينى ويحك أشرب . فأبت عليه . فأخذ مِشْقصاً [٦] وقطع به رواهشَها [٧] ، فماتت. وعَبّ فى الماء حتى رَوِى ، ثم أتى قومَه .

ذكر قتل زهير بن جذيمة العبسى

قيل كان بين مَقتل شأس بن زُهير وأبيه زُهير ما بين عِشرين سنةً إلى ثلاثين سنة . وكانت هوازن بن مَنصور لا ترى زُهيرا إلا ربًّا لها ، وكان قد

(١) تريغه : تطلبه . (٢) خنسوا : تأخروا وتنحوا .
(٣) الشاكلة : الخاصرة . (٤) فى غير التجريد : « مراميه ».
(٥) فى بعض أصول الأغانى : « وهو يستدى على الحوض » أى وقد طأطأ رأسه يقطر منه الدم.
(٦) المشقص : النصل العريض . (٧) الرواهش : عصب وعروق فى باطن الذراع .

أستذلها زُهير وقهرها ، فكان زُهير يعشُرهم ، (١) فكان إذا كان سُوق عُكاظ أتاها زُهير ، ويأتيها الناسُ من كل جانب ، فتأتيه هوازن بالإتاوة التى كانت له فى أعناقهم من السَّمن والأَقِط والغَنَم ، فأتتْه عجوز من بنى مُضر بن مُعاوية بن بكر بن هَوازن بسَمن فى نَحْيٍ ، واعتذرت إليه وشَكت السِّنين اللواتى تتابعْن على الناس . فذاقه فلم يَرْض طعمَه ، فضَرب صدرَها بقَوسٍ كانت فى يده ، فوقعت على ظَهرها و بدت عورتُها ، فغضبتْ لذلك هوازن على زُهير واشتدّ حقدُها عليه ، مع ما كان عندها له من الغيظ والحسد . وقال خالد بن جعفر بن كلاب : والله لأجعلنّ ذِراعى وراء عُنقه حتى أُقتل أو يُقتل . وانفرد زُهير عن قومه ببَنيه وبَنى أخويه ، وهم أَسيد وزِنباع ، (٢) ومعه إبلٌ له ، فنَزل منزلاً يقربُ من بنى عامر وهو لا يشعر بقُربهم منه ، وكانت زوجتُه تُماضر بنت عمرو ابن الشَّريد السُّلمى ، وهى أُم ولده ، فمرّ بها أخوها الحارثُ بن عمرو بن الشَّريد ، فقال زُهير لبَنيه : إنّ هذا الحمار لطليعةٌ عليكم فأَوْثقوه . فمنعتْهم أُمهم من ذلك ، وقالت لأخيها : إنه ليَرِيبُنى أمرُك . ثم حلبوا له وَطْباً من لبن وأحلفوه يميناً ألّا يُنْذِر بهم أحدًا . فخرج حتى أتى بنى عامر فى ناديهم ، فأتى شجرةً فألقى وَطْبَ اللبن تحتها . والقوم ينظرون إليه ، ثم قال : أيتُها الشجرة الذَّليلة ، أشربى من هذا اللبن فانظُرى ما طَعْمُه . فقال أهلُ المجلس : هذا رجل مأخُوذ عليه عهد وهو يخبركم خبراً . فأتوه ، فإذا هو الحارث بن عمرو ، فذاقوا اللبن فإذا هو حُلو لم يَقْرُص بعد . فقالوا : إنه ليُخبرنا أنّ مَطلبنا قريبٌ . فركب معه ستةُ فوارسَ لينظُروا ما الخبر ، وهم : خالد بن جعفر بن كلاب ، على فرسه المُسمّاة حَذْفة ، وحُندج بن البَكّاء ، ومُعاوية بن عُبادة بن عُقَيل ، فارس الهرّار ، وهو الأخيل جَدّ لبلى الأخيلية ، وهو

(١) عشيرهم : يأخذ عشر أموالهم .
(٢) فى التجريد : « ضباع » .

يومئذ غُلام له ذؤابتان ، وهو أصغر مَن رَكِب ؛ وثلاثُ فوارس من سائر بنى عامر . فاقتصُّوا أثر الحارث بن الشَّريد ، فلما رأوا إبلَ بنى جَذيمة نزلوا عن الخيل . فقالت النساء : إنّا لنَرى حَرَجةً من عِضاهٍ أو غابةَ رماح بمكانٍ لم نكُن نرى به شيئاً . ثم راحت الرِّعاء فخبَّروا بمثل ما قالت النساء . وأخبرت راعيةُ أَسِيد بن جذيمة أَسِيداً بذلك . فأتى أسيد أخاه زُهيرا فأخبره بما أخبرتْه به الراعية ، وقال : إنها إنما رأتْ خيلَ بنى عامر ورماحَها . فقال له زُهير : كُلّ أزبّ نَفُوز [1] — فذهبت مثلاً . وكان أَسِيد كثيرَ الشَّعر — وأين بنو عامر ! أمّا بنو كِلاب فكالحيّة إن تركْتَها تركتْك ، وإن وطئتها عَضّتك ؛ وأما بنو هلال فيبيعون العِطر . فتحمّل عامةُ بنى رَواحة ، وآلى زُهير لا يبرح مكانَه حتى يُصبح . وتحمّل مَن كان معه غيرَ أبنيه : ورقاء، والحارث . فصَبحهم القوم غُدوةً ، فركب أسيد فَرسه ونجا بها . ووثَب زُهير على القَعساء فرسه فَركبها ، وهى يومئذ عَقُوق متمرِّدة . وأُعروري [2] ورقاء والحارث أبناه فَرَسيْهما ، ثم خالفوا جهةَ مالِهم ليُعَمُّوا على بنى عامر جهةَ ما لهم فلا يأخذُوه . ونادى بعضُ بنى عامر بشعار أهل اليمن ليُعَمِّى على الجَذَميّين من القوم . فقال زُهير : هذه اليمن قد أعلمت أنّها أهل اليمن . وتمرّدت القعساء بزُهير ، وأتبعه خالد بن جعفر على فرسه حَذْفة . فلما رأى خالدٌ فرسه حَذفة لا تَلحق القَعساء قال لمعاوية الأخيل بن عُبادة ، وهو على فرسه الهَرَّار : أدرك مُعاوىَ . فأدرك معاويةُ زُهيراً ، وجعل أبناه وَرقاء والحارث يذُبّان عن أبيهما. فقال خالد لمُعاوية : اطعُن يا معاوية فى نَساها [3] ، فطَعنها فى إحدى رجليها ، فانخزلت القعساء بعضَ الانخزال، وهى فى ذلك تَعدو أشدَّ عدو . فقال له

(١) الأزب : الذى كثرت شعرات حاجبيه ، فإذا ضربتها الريح نفر .

(٢) اعروري الفرس : ركبها عارية من غير سرج .

(٣) النسا : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر .

زُهير : اطعُن الأُخرى ، يكيده بذلك لكى تستوى رجلاها فتحامَلَ [١] . فناداه خالد : اُطعُن مكاناً واحدا . فطعَنها فى رجلها المَطعونة ، فانخزلت ، ولحِقه خالدُ بن جعفر على حَذْفة ، فجعل يدَه وراء عُنقه فقلبه ، وخرّ خالدٌ عن فرسه ، فوقع فوقه ، ورفع المِغفر عن رأس زُهير بن جَذيمة ، ونادى : يا آل عامر ، اقتُلونا معاً . فعرف زُهير وأبناه أنهم بنو عامر ، وكانوا يظُنونهم من اليَمن . فقال ورقاء ابن زُهير : وانقطاعَ ظَهراه ! إنها لبَنو عامر ! سائرَ اليوم . ولحق حُندج بن البَكّاء ، وقد حَسَر خالدٌ المِغفر عن رأس زُهير ، فقال لخالد : نَحّ رأسَك يا أبا جَزْء ، لم يَحِن يومُك . فنحّى خالدٌ رأسَه . فضَرب حُندجٌ رأس زُهير ، وضربَ ورقاء بن زُهير رأسَ خالد بالسيف ، وعليه دِرْعان ، فلم يُغْن شيئاً . وانتزع أبنا زُهير أباهما من القوم . ورَجع القوم ومَضى ابنا زُهير بأبيهما . وكان السيفُ قد بلغ دِماغَه . ومنع بنو زُهير أباهم من شُرب الماء خوفاً عليه ، فاستسقاهم فمَنعوه . واشتدّ به العطشُ . والمأموم يُخاف عليه من شُرب الماء . فألحّ عليهم فى طَلب الماء . فسقَوْه . فمات لثالثة .

شعر ورقاء فى مقتل زهير

فقال ورقاء بن زُهير :

رأيتُ زُهيراً تحت كَلكل خالدٍ ... فأقبلتُ أسعى كالعَجُول [٢] أُبادِرُ

إلى بطلَيْن يَنهضان كلاهما ... يُريغان نَصْلَ السَّيف والسيفُ [٣] نادر

فشَلّت يَمينى إذ ضربتُ ابنَ جَعفرٍ ... وأحرزه منّى الحديدُ المُظاهَر

فيا ليتنى مِن قبل أيّام خالدٍ ... ويومِ زُهير لم تَلِدْنى تُماضِر

شعر خالد بن جعفر فى مقتل زهير

وقال خالد بن جَعفر يَمُنّ على هَوازن بقَتله زُهير بن جَذيمة :

بل كيف تكفُرنى هوازنُ بعد ما ... أعتقتُهم فتوالدُوا أحرارَا

(١) أى فتتحامل ، حذف إحدى التاءين .

(٢) العجول : التى فقدت ولدها ، فهى عجلة جيئة وذهاباً لجزعها .

(٣) يريغان : يطلبان . ونادر : ساقط .

وقتلتُ ربهمُ زُهيراً بعد ما جَدع الأُنوف وأكثر الأوتارا
وجعلتُ مَهر بناتِهم ودمائهم عَقْلَ المُلوك هجائناً أبكارا
وجعلتُ حَزْنَ بلادهم وجبالهم أرضاً فضاءً سهلةً وعِشارا

للفرزدق فى مقتل خالد

وفى ضربة ورقاء رأسَ خالدٍ يقول الفرزدقُ :

إن يكُ سيفٌ خانَ أو قَدَرٌ(١) أتى لتأخير نفسٍ حَتْفُها غيرُ شاهدِ
فسيفُ بنى عَبْسٍ وقد ضربوا به نَبَا بيدَىْ وَرْقاءَ عن رأسِ خالد
كذاك سيوفُ الهند تَنْبو ظُباتُها وتقطَع أحياناً مناطَ القلائد

ذكر مقتل خالد بن جعفر

قاتل زهير

ذُكر أنّ خالدَ بن جعفر كان أغار على رَهط الحارث بن ظالم ، من بنى يَربوع بن غَيْظ بن مُرّة ، وهم بوادٍ يقال له : حُرَاض . فقَتل الرجالَ حتى أسرف فيهم . والحارثُ بن ظالم يومئذ غلامٌ . وبَقيت النساء . ويقال : إنّ ظالماً هَلك فى تلك الوَقعة من جِراحة أصابته يومئذ . ونشأ الحارث على بُغضِ خالد ، وأردف ذلك قتلُ خالدٍ زُهيراً ، فاستحقّ العداوةَ فى غَطفان . فمكث خالدُ بن جعفر بُرهةً من دهره ، وهو يومئذٍ رأسُ هوازن . ثم إنه وفَد على النُّعمان بن المُنذر وأَهدى إليه فرساً . فأُلقى عنده الحارث بن ظالم المُرّى . فقدّم لهم النعمان تمراً . فطفِق خالدُ ابن جَعفر يأكُل ويُلقِى النَّوى قُدّام الحارث . فلما فَرغ القومُ قال خالد : أبيتَ اللعن ! أنظُر إلى ما بين يدى الحارث من النَّوى . ثم قال : إن الحارث لم يترُك لنا تمراً إلا أكله . فقال الحارث : أمّا أنا فأكلتُ التمر وألقيتُ النَّوى ، وأما أنت يا خالد فأكلتَه بنواه . فغضب خالدٌ ، وكان لا يُنازَع . فقال : أتُنازعنى

(١) فى البيت خرم ، وهو حذف الحرف المتحرك من أول البيت . والرواية فى بعض أصول الأغانى : « أتى » مكان « أبى » .

يا حارث وقد قتلتُ حاضرتَك وتركتُك يتيماً فى حُجور النِّساء . فقال : ذلك يومٌ لم أشهده ، وأنا مُغْنٍ اليومَ بمكانى . قال خالد : فهلاّ تشكُر لى إذ قتلتُ زهيرَ ابن جَذيمة وجعلتُك سيدَ غَطفان . فقال الحارث : سأشكرك على ذلك . فخرج الحارثُ بن ظالم إلى بيت قَينة ، فشَرِب عندها وتغنَّى . فقال :

تعلَّمْ أبيتَ اللعنَ أنِّىَ (١) قاتلٌ ... من اليوم أو من بعده لابن (١) جَعْفر
أخالدُ قد نَبَّهتنى غيرَ نائم ... فلا تأْمَنَنْ فَتْكى يدَ الدهرِ واحذر
أعيَّرتنى أنْ نِلْتَ منّا فوارساً ... غداةَ حُرَاضٍ مثلَ جِنّان (٢) عَبْقَر
أصابهمُ الدهرُ الخَتُور (٣) بعِثْرةٍ ... ومَن لا يَقِ اللهُ الحوادثَ يَعْثُر
فعلّك يوماً أن تبُوء (٤) بضَربة ... بكفِّ فتًى من قومه غيرِ (٥) جَيْدر
يُغَصّ (٦) بها عُليا هوازن ، والمُنَى ... لقاء أبى جَزْء (٧) بأبيض مِبْتَر

فبلغ خالدَ بن جعفر قولُه فلم يَحْفِل به . فقال عبدُ الله بن جَعدة ـ وهو ابن أخت خالد ، وكان رجلَ قيسٍ رأياً ـ لابنه : يا بُنى ، ائت أبا جَزء فأخبره أنّ الحارث سفيهٌ موتور . فأَخْفِ مبيتك الليلةَ فإنه قد غلبه الشرابُ . فإن أبيتَ فاجعل بينك و بينه رجلاً يَحْرُسك . فوضعوا رجلاً بإزائه . ونام ابنُ جَعدة دون الرَّجل . وخالدٌ من خلف الرجل . فأقبل الحارثُ بن ظالم فانتهى إلى ابن جعدة فتعدّاه . ومضى إلى الرجل الذى يحرُس خالداً فعَجَنه بكَلْكله حتى كَسره ، ثم مَضى إلى خالد بن جعفر فضَربه بالسَّيف حتى قتله ، ثم قال لعُروة ،(٨) وهو الذى كان يحرس خالداً : أَخبر الناسَ أنى قد قتلتُ خالدا . وقال فى ذلك :

(١) فى بعض أصول الأغانى : « أنى فاتك » ... بابن جعفر .
(٢) عبقر : موضع ، تزعم العرب أنه كثير الجن .
(٣) الختور : الغادر الخادع . (٤) فى غير التجريد : « تنوء » .
(٥) الجيدر : القصير . (٦) فى التجريد : « يفض » .
(٧) أبو جزء : كنية خالد بن جعفر .
(٨) هو عروة بن عتبة ، ابن أخى خالد ، وكان يحرس عمه خالداً مع ابن جعدة .

ألا سائل النُّعمانَ إن كنتَ سائلاً وحَيَّ كِلابٍ هل فتكتُ بخالدِ
عَشوتُ إليه وابنُ جعدَة دونه وعُروة يَكْلا عَمَّه غيرَ راقد
فأضربُه بالسَّيف يأفوخَ رأسه فصمّم حتى نال نُوطَ [1] القلائد
وأفلتَ عبدُ الله منِّى بذُعره وعُروةُ من بعد ابْنِ جَعدةَ شاهدِى

ثم لحق الحارثُ بن ظالم المُرّى بحاجب بن زُرارة . فاستجار به فأجاره. ووعَده أنْ يَمنعه من بنى عامر . وبلغ بنى عامر مكانه فى بنى تميم ، فساروا فى عُلْيا هوازن ، فلما كانوا قريباً من القوم فى أول وادٍ من أوديتهم ، خرج رجلٌ من بنى غَنِىّ ، فإذا هو بامرأة من بنى تميم ، ثم من بنى حَنظلة ، تَجتنى الكَمْأة . فأخذها فسألها عن الخبر . فأخبرتْه بمكان الحارث بن ظالم عند حاجب بن زُرارة ، وما وعَده من نَصره ومَنْعه . فانطلق بها الغَنوىُّ إلى رَحله . ثم انسلّت فى وسط من الليل . فأتى الغنوىُّ الأحوصَ بن جعفر فأخبره أن المرأة قد ذَهبت ، وقال : هى مُنذرةٌ عليك . فقال له الأحوصَ : ومتى عهدُك بها ؟ قال : عهدى بها والمنىُّ يقطُر من فرجها . قال : وأبيك إن عهدك بها لقريب . وتبع المرأةَ عامرُ بن مالك يقُصّ أثَرها حتى انتهى إلى بنى زُرارة ، والمرأة عند حاجب ، وهو يقول لها : أخبرينى أىُّ قوم أخذوك ؟ قالت : أخذنى قومٌ يُقبلون بوجُوه الظِّباء ، ويُدبرون بأعجاز النساء . قال : أولئك بنو عامر . قال : فحدِّثينى مَن فى القوم . قالت : رأيتُهم يَغدون على شيخٍ كبير لا ينظُر بمَأْقَيْه [2] حتى يَرفعوا له مِن حاجبَيْه . قال : ذاك الأحوص بن جعفر . قالت : ورأيتُ شابًّا شديدَ الخَلق كأنّ شَعْر ساعديه حَلَق الدِّرع . قال : ذاك عُتبة بن بَشِير بن خالد . قالت : ورأيتُ كهلاً إذا أقبل ، معه فتَيان ، يشرئبّ القوم إليه ، وإذا نطق أنصتوا . قال : ذاك عمرو بن خُويلد ،

(١) يأفوخ الرأس : ملتقى عظم المقدم والمؤخر . وصمم : مضى . ونوط : جمع نياط ، وهو من كل شىء : معلقه . (٢) مأق العين وموقها : مؤخرها ، أو مقدمها .

والفتيان أبناه . قالت : ورأيتُ شابًّا طُوالاً حُساناً إذا تكلّم بكلمة أنصتوا له ثم يؤلُّون[1] إليه كما تؤُلّ الشَّولُ[2] إلى فحلها . قال : ذاك عامر بن مالك . فدعا حاجبٌ الحارثَ بن ظالم فأخبره خبرَ القوم . وقال: يا بن ظالم ، هؤلاء بنو عامر قد أتَوْك ، فما أنت صانعٌ . قال الحارث : ذاك إليك ، إن شئت أقمتُ و إن شئتَ تنحّيت . فقال حاجبٌ تَنحَّ عنى غيرَ ملوم .

فغضِب الحارث من ذلك ، وقال :

لَعمرى لقد جاورتُ فى حَيِّ وائلٍ ... ومِن وائل جاورتُ فى حَيٍّ تَغْلِبِ
فأصبحتُ فى حيِّ الأراقم لم يقُل ... لِيَ القومُ يا حارِ بنَ ظالمٍ أذهَب
وقد كان ظَنِّى إذ علقتُ إليكُمُ ... بنى عُدُس ظَنِّى بأصحاب يَثْرب
غداةَ أتاهم تُبَّعٌ فى جُنوده ... فلم يُسْلِموا المَرَّار من حَىّ يَحْصُب
فإن تَكُ فى عُلْيا هوازنَ شوكةٌ ... تُخاف ففيكم حَدُّ نابٍ ومِخْلَب
فإن يَمنع المرءَ الزُّرارىُّ جارَه ... [3] فما حاجبٌ فى خِنْدِف بمُسيَّب
و إن يُسلم المرءَ الزُّرارىُّ جارَه ... فأَعْجِب بها من حاجبٍ ثم أَعجب

فغضب حاجبٌ ثم قال :

لَعمرُ أبيك الخيرِ يا حارِ إننى ... لأَمنعُ جاراً من كُلَيبِ بن وائِلِ
وقد عَلِم المرءُ المَعدِّىُّ أننا ... على ذاك كُنّا فى الخُطوب الأَوائل
وأنّا إذا ما خاف جارٌ ظُلامةً ... لَبِسنا له ثَوْبَىْ وَفَاء ونائل
وأنّ تَمِيماً لم تُحارب قبيلةً ... من النّاس إلا أُولعتْ بالكواهل
ولو حاربتْنا عامرٌ يا بنَ ظالمٍ ... لَعضَّتْ علينا عامرٌ بالأَنامل
ولاستيقنت عُلْيا هوازنَ أننا ... سنُوطئها فى دارها بالقنابل

(١) يؤل : يسرع . (٢) الشول : الناقة خف لبنها وارتفع ضرعها .
(٣) هذا العجز ساقط فيما بين أيدينا من أصول الأغانى وكذلك صدر البيت التالى .

ولكنّنى لا أبعثُ الحرْب ظالماً ولو هِجْتُها لم أُلفَ شَحْمةَ آكِل

فتنحّى الحارثُ بن ظالم عن بنى زُرارة فلَحق باليمامة . ودعا حاجبُ مَعبداً ولَقِيطاً ، أبنى زُرارة ، فقال : سِيرَا فى الظُّعْن فإنّ موعدكما رَحرحان ، وإنّا مُقيمون فى حامية الخيل حتى تأتينا بنو عامر . وخرج عامر بن مالك إلى قومه بالخبر . فقالوا : ما ترَى ؟ قال : أن تدَعوهم بمكانهم وتَسبقوهم الى الظُّعن . فلَقوها برَحْرحان ، فاقتتلوا قتالاً شديدا ، فأصابوها ، وأُسر مَعبد وجُرح لقيط . وبَعثوا بمَعْبد إلى رجُل بالطائف من أهلها كان يُعذِّب الأُسرى ، فقطَّعه إرْباً إرْباً ، حتى قتله . وقال عامرُ بن مالك يُجيب حاجباً :

أَلِكْنى[1] إلى المَرء الزُّرارىّ حاجبٍ رئيسِ تَميم فى الخُطوب الأوائلِ
وفارِسِها فى كُل يومٍ كريهةٍ وخيرِ تميمٍ بين حَافٍ وناعِلِ
لعَمْرى لقد دافعتُ عن حَىِّ مالكٍ شآبيبَ من حَرْبٍ تَلفَّح[2] حائل
على كُلِّ جَرداءِ السَّراةِ طِمِرَّةٍ وأَجْرَدَ خَوَّارِ العِنان[3] مُناقِلِ
نصحتُ له إذ قلتُ إنْ كنتَ لاحقاً بقَوْمٍ فلا تَعْدِل بأبناء وائل
ولو ألجأتْه عُصبةٌ تَغلبيّةٌ لسِرْنا إليهم بالقَنا والقَنابل
ولو رُمتُمُ أنْ تَمنعوه رأيتُمُ هناك أموراً غِبُّها[4] غير طائل
لشابَ وَليدُ الحىِّ قبل مَشيبه وعضَّت تميمٌ كُلُّها بالأنامل
وقامتْ رجال منكُم خِنْدفيّةٌ يُنادون جَهراً ليتنا لم نُقاتِل

---

(١) ألكنى ، أى كن رسولى .

(٢) شآبيب : دفعات . وتلفحت الناقة : شالت بذنبها ترى أنها لاقح لئلا يدنو منها الفحل . والحائل : التى لم تحمل .

(٣) الجرداء : القصيرة الشعر ، وهو مدح لها . والسراة : الظهر . والطمرة : المتوثبة للعدو . وخوار العنان : سهل الانقياد . والمناقل : الذى يحسن نقل رجليه ويتقى الحجارة فى عدوه .

(٤) فى غير التجريد : « غيها » .

ذكر مقتل الحارث بن ظالم

قيـــل :

وخرج الحارث بن ظالم فَوْره ذلك حتى أتى سَلْمى بنت ظالم ، وفى حِجْرها ولدُ النُّعمان بن المُنذر ، فقال لها : إنه لن يُجيرنى من النُّعمان إلا تَحرُّمى بابنه ، فادفعيه إلىّ . وقد كان النُّعمان بعث إلى جارات للحارث بن ظالم فسباهُنّ . فدفعتْ سَلمى ابنَ النُّعمان إلى الحارث . فقتله الحارث . فوثب النُّعمان على عمّ الحارث ابن ظالم ، فقال : لأقتلنَّك أو لتأتينّى بابن أخيك . فأعتذر إليه . فخلّى سبيله . وقال الحارث فى قتله ابن النُّعمان :

حَسِبت أبا قابوس أنك ظالمى ... ولَمّا تُذُق فَتْكى[1] وأنفُك راغِمُ
فإنْ تَكُ ذَوداً قد[2] أصبتَ ونسوةً ... فهـــذا ابْنُ سَلْمى أمرُه مُتفاقِمِ
علوتُ بذِى الحيَّات[3] مَفْرِقَ رأسه ... وكان سِلاحى تَحْتويه[4] الجَماجم
فتكتُ به فَتكاً كفَتْكى[5] بخالد ... وهل[6] يركبُ المَكروهَ إلّا الأكارم
بدأتُ بهـذِى ثم أُثنّى[7] بمِثلهـا ... وثالثـــةٍ تَبيضُّ مِنها المَقـــادم

ثم إنَّ النُّعمان بن المُنذر آمَنه ، فأقام حيناً . ثم إنَّ مُصدِّقاً للنُّعمان أخذ إبلاً لامرأة يقالُ لها : ذاهب[8] . فأتَت الحارثَ بن ظالم فعلّقَت دَلْوها بدَلْوه ، ومعها بُنىّ لها ، فقالت : أبا ليلى ، إنى أتيتُك مُضافة[9] . فقالَ لها الحارث : إذا أورد القومُ النَّعَم فنادِى بأعلَى صوتك :

(١) الرواية فى بعض أصول الأغانى : « حسبت أبيت اللعن أنك فائت * ولما تذق نكلا » .
(٢) فى غير التجريد : « فإن تك أذوادا أصبت » : (٣) ذو الحبات : سيفه .
(٤) فى المفضليات : وتجتويه أى لا توافقه . والذى فى التجريد وأصول الأغانى : « تحتويه » .
(٥) فى التجريد : « فتكت به كما فتكت بخالد » .
(٦) فى بعض أصول الأغانى « ولا » .
(٧) فى التجريد : « بدأت بتلك وانثنيت بهذه » .
(٨) هذه رواية التجريد . وفى غيره : « ديهث » . (٩) المضافة : الملجأة .

دَعَـــوتِ بالله ولم تُراعى ذلك راعيــكِ فنعم الرَّاعِى
وتلك ذَوْدُ الحارث[1] الكَسَّاع يَمشى لَهَـــا بصارمٍ قَطَّاع
يَشفى به مَجامع الصُّـــداع

وخرجَ الحارث بن ظالم فى إثرها ، وهو يقول :

أنا أبو ليلَى وسَـيفى[2] المَعْلوبْ كم قد أجرنا مِن حَريبٍ مَحْروبْ
وكم رَدَدْنا مِن سَلِيبٍ مَسـلوب وطَعنـــةٍ طعنتُهـا بالمَنْصوب
ذاك جهيزُ الموت عند المَـكروب

ثم قالَ لها : لا تردنَّ عليك ناقة ولا بعيرٌ تَعرفينه إلا أخذتِه ، ففعلت . فأتَتْ على لَقُوح لها يحلِبُها حبشىّ ، فقالتْ : يا أبا ليلى ، هذه لى . فقالَ الحَبشىّ : كذبتِ . فقال الحارث ؟ أَرْسلها لا أُمَّ لك . فضَرط الحبشىّ . فقال الحارث : أنت الحالب أعلم . فأَرسلها مثلا . وأَسِف النُّعمان بن المُنذر على فَوت الحارث بن ظالم ، فلُطف له وراسله وأَعطاه الأمانَ ، وأشهد على نفسـه فيه وُجوهَ العرب مِن رَبيعة ومُضَر واليمن أنه لا يطلُبـــه بذَحْل ولا يسوءه بحال ، وأَرسل به مع جماعـــة له يسكُن إليهم ، وأَمَرهم أن يتكفَّلوا له بالوفاء ، ففعلوا ذلك ، وسكن إليهم الحارث . فأتى النُّعمانَ ، وهو فى قصر بنى مُقاتل ، فقال للحاجب: أستأذن لى ـ والناسُ يومئـذ عند النعمان مُتوافرون ـ فأستأذن له . فقال النعمان : إيذن له وخُذ سيفه . فقال : ضَع سيفك وادخل . فقال الحارث : ولم أضعُ سيفى ؟ قالَ: ضعْه ولا بأس عليك . فلما ألحَّ عليه ، وَضعه ودخل عليه ومَعـه الأمان . فقال لما دخل : أنَعم صباحاً ، أبيتَ اللعن . فقال : لا أنعم الله صباحك ! فقال الحارث : هذا كتابُك . فقالَ : إى والله ما أُنكره ، وأنا كتبتُه إليك ، وقد غَـدَرتَ وفتكتَ مِراراً ، فلا ضير

(١) الكساع : مبالغة من كسعهم بالسيف ، إذا اتبع أدبارهم فضربهم به .
(٢) المعلوب : سيفه .

أن أغدر بك مَرَّة واحدة . ثم نادى : مَنْ يقتُل هذا ؟ فقام ابنَ الخِمْس التَّغلبي ـ وكان الحارث فَتك بأبيه ـ فقال : أنا أقتلُه . فقال الحارث : يابن شَرِّ الأظعاء ، أنتَ تقتلني ! فقتله وأخذ ابنُ الخِمس سيف الحارث بن ظالم المَعلوب ، فأتى به سُوق عكاظ ، فجعل يَعرضه على البيع ويقول : هذا سيف الحارث بن ظالم . فرآه قيس بن زهير بن جَذيمة ، فطلبَ منه أن يُريه إياه . فعلاه به فى الحَرَم حتى قَتله . وإنما فعل ذلك انتقاماً للحارث بن ظالم ، جزاء له على فتكه بقاتل أبيه زُهير[1] .

ذكر يوم شعب جبلة

هذا يوم من أعظم أيام العرب وأشهرها .

ذُكر أن عبساً لمّا حاربت بنى ذُبيان أتوا بنى عامر وقَصدوا الاتفاق معهم على حرب ذُبيان وأن يوقعوا الحِلف معهم على ذُبيان . فأتى قيسُ بن زُهير ، ابن جَذيمة والرّبيع بن زياد العبسيَّان ، بيت الأحْوص بن جعفر ، وتقدَّم إليه قيسٌ وأخذ بمَجامع ثَوبه من وراء ظهره وقال : هذا مقام العائذ بك ! قتلتم أبى فما أخذتُ له عَقْلاً ولا قتلتُ به أحداً ، وقد أتيتُك لتُجيرَنا . فقال الأحْوص : نَعم ، أنا لك جارٌ مما أُجير منه نفسى . وعوفُ بن الأحْوص عن ذلك غائب . فلما سمع عوفٌ بذلك أتى الأحْوص وعنده بنو جَعفر ، فقال : يا معشر بنى جعفر ، أَطيعونى اليومَ وأعصونى أبداً ، وإن كنتُ والله فيكم مَعصيًّا . إنهم والله لو لقُوا بنى ذُبيان لولَّوكم أطرافَ الأَسنة ، فابدءوا بهم فاقتلُوهم . فأَبَوْا عليه وحالفوهم . وسمعتْ بهم بنو ذُبيان ، فحَشَدُوا واستعدُّوا ، وخرجوا وعليهم حِصْن بن حُذَيفة بن بَدْر ، ومعه الحليفان أَسد وذُبيان ، يطلُبون بدم حُذَيفة بن بدر . وأقبل معهم شُرَحبيل ابن أَخضر بن الجَوْن — وهو معاوية ، ويُسمى الجون لشدة سواده — بن آكل

(١) ساق أبو الفرج قبل « يوم شعب جبلة » خبر الحارث وعمرو بن الإطنابة فى صفحات قليلة.

المُرار الكِنْدىّ فى جَمع من بنى كِنْدة . وأقبلت معهم بنو حَنظلة التَّميميون يَطلبون بدم مَعبد بن زُرارة ، ويثربىّ بن عُدُس ، الذى أخذته بنو عامر يوم رَحْرحان وبعثوا به إلى الطَّائف فقُطع إرْباً . وقد تقدم ذكر ذلك . وجامَعهم حسّان بن عمرو ابن الجَون فى جَمع عَظيم من كِنْدة ، ومعهم من رؤساء تميم حاجبُ بن زُرارة ، وأخوه لَقيط ، والحارث بن شِهاب ، وجَمع عظيم من أوباش العرب يطلبون الغنيمة . فجمعوا جمعاً لم يكن فى الجاهلية قطُّ مثلُه . فلم تشُك العرب فى هَلاك بنى عامر .

استشارتهم الأحوص

فلما سمعتْ بنو عامر بمَسيرهم اجتمعوا إلى الأَحْوص بن جعفر بن كِلاب — وهو يومئذ شيخٌ كبير قد وَقع حاجباه على عينَيْه وترك الغَزْو ، غير أنه يُدبِّر أمرَ الناس ، وكان مُجرِّباً حازماً ميمونَ النَّقيبة — فأخبروه الخبر . فقال لهم الأحْوص : كبرْتُ فما أستطيع أن أجىء بالحَزْم ، وقد ذهب الرأى منِّى ، ولكنِّى إذا سمعتُ عرفتُ ، فأَجْمِعوا آراءكم ثم بِيتُوا ليلتكم هذه ، ثم اغدُوا علىَّ فأَعْرِضوا علىَّ آراءكم . ففعلوا . فلما أصبحوا غدَوْا عليه ، فوُضعت له عَباءة بفنائه فجلس عليها ، ورَفع حاجبيه عن عينيه بعصابة ، ثم قال : هاتُوا ماعندكم . فقال قيسُ بن زُهير العَبسىّ : باتت فى كِنانتى الليلة مائةُ رأى . فقال الأَحوص : يَكفينا منها رأىٌ واحد حازم مُصيب ، هات فانثُر كنانَتك . فجَعل يَعْرِض عليه كُلَّ رأى رآه حتى أَنفد . فقال الأَحوص : ما أرى بات فى كِنانتك الليلةَ رأىٌ واحد حازم مُصيب . وعرض الناسُ آراءهم حتى أَنفدوا . فقال : ما أَسمع شيئاً وقد صِرْتم إلىَّ ، احملوا أثقالكم وضُعفاءكم . ففعلوا . ثم قال : احملوا أَظعانكم . فحَملوها . ثم قال ! اركبوا . فركبُوا ، وجعلوه فى مَحفَّة . وقال : انطلقوا حتى تَعْلوا فى اليَمَن . فإن أَدركم أحدٌ حملتُم عليهم ، وإن أَعجزتموهم مضيتُم . فسار الناسُ . ثم إنّ عمرو بن عبد الله بن جعدة أَنكر على عمِّه الأحوص هذا الرأىَ وقال : أردتَ أن تفضَحنا وتُخرجنا هارِبين من بلادنا ، ونحنُ أعزُّ العرب وأكثرها عدداً وجلداً وأَحدُّهم شوكةً ! وتُريد أن

تجعلنا موالى فى العَرب إذ خرجتَ بنا هارباً ! قال : فكيف أفعلُ وقد جاءنا ما لا طاقة لنا به ! فما الرأى ؟ قال : نَرْجع إلى شِعْب جَبلة فنُحرِز النساء والضَّعفة والذَّرارىَّ والأموال فى رأسه ونكونُ فى وَسَطه ، ففيه خِصْبٌ وماء ؛ فإن أقام من جاءك أسفلَ أقاموا على غير ماء ولا طَعام لهم ، وإن صَعدوا إليك قاتلتَهم من فوق رُءوسهم بالحجارة ، وكنتَ فى حِرْز وكانوا فى غير حِرْز ، وكنتَ على قِتالهم أقوى منهم على قتالك . فقال : هـذا والله الرأىُ ، فأين كان هـذا الرأى عنك حين استشرتُ الناسَ ؟ فقال : إنما جاءنى الآن . فقال الأحوصُ للناس : ارجعوا . فَرجعوا إلى شعب جَبلة ، وهو جَبل عظيم له شِعب عظيم لا يُرى الجبل إلا من قِبل الشِّعب ، والشعب مُتقارب المدخل ، وداخله مُتَّسع . فدخلتْ بنو عامر شِعْباً منه يقال له : مُسلِّح ، فحَصنوا الذَّرارى والنِّساء والأموال فى أعلى الجبل ، وحَلَّئوا الإبل عن الماء ، واقتسمت القبائلُ شِعاب الوادى بالقُرعة والقِداح ، فحَصل لكل منهم جانب منه .

من شهدها

وشهد هذه الحربَ من العَرب بنو عَبْس بن رفاعة ، من سُليم ، وكان لهم بأس وحَزم ، وعليهم مرادسُ أبو العبَّاس بن مِرادس ، وكانوا حُلفاء بنى عمرو بن كلاب . وشهدتْها غَنِيٌّ وباهلة ، وناسٌ من بنى سَعد بن بكر ، وقبائلُ بَجيلة كلُّها . فبلغ جمعُهم ثلاثين ألفاً . وعُمِّى على بنى عامر الخبرُ فجعلوا لا يَدْرون ما قُرْب القوم من بُعدهم . وأقبلت تَميم وذُبيان وأسد وذبيان ولفيفُهم[1] نحو جبلة . ولقُوا كَرِب بن صَفوان بن شِجْنة بن عُطارد ، فقالوا له : أين تذهبُ ؟ أتريد أن تُنْذِر بنا بنى عامر؟ قال : لا . قالوا : فأعطنا عهداً ومَوْثقاً ألّا تفعلَ . فأعطاهم ، فخَلَّوا سَبيله . فمضى مُسرِعاً على فَرس له عُرْيٍ[2] ، حتى إذا نَظر إلى مَجلس بنى عامر وفيهم الأحوصُ ،

(١) فى بعض أصول الأغانى : « ولفهم » .

(٢) عرى : لا سرج عليه . وفى بعض أصول الأغانى : « عربى » .

نزل تحت شجرة حيث يَرَوْنه . فأرسلوا إليه يَدْعونه . فقال : لستُ فاعلاً ، ولكن إذا رحلتُ فأتُوا منزلى فإن فيه الخبر . فلما جاءوا منزلَه إذا فيه تُرابٌ فى صُرَّة وشوكٌ قد كسر رُءوسه وفرَّق جِهَته ، وإذا حنظلةٌ موضوعة ، وإذا وَطْب مُعلَّق فيه لَبن . فقال الأحوص بن جَعفر : هذا رجلٌ قد أُخذ عليه المواثيق ألّا يتكلّم ، وهو يُخبركم أن القوم مثلُ التُّراب كثرةً ، وأنَّ شوكتهم كَليلةٌ ، وأنهم متفرقون ، وجاءتكم بنو حَنظلة . انظُروا ما فى الوطب فاصطبّوه . فإذا فيه لَبن حَزَرَ — قَرَص — فقال : القومُ منكم على قَدْر حِلاب اللبن إلى أن يَخْثُر[1] .

فلما أُستيقنت بنو عامر بإقبالهم صَعِدوا الشِّعب ، وأمر الأحوصُ بالإبل التى قد ظُمِّئت ، فقال : أُعقلوها كُلَّ بعير بعقالَين فى يديه جميعاً . وأصبح لَقيطُ ابن زُرارة أخو حاجب ، والناس نُزولٌ بالشِّعب . وكانت مَشورتهم إلى لَقيط . فاستقبلهم جَملٌ عَوْدٌ[2] أجربُ أحذُّ أعصل[3] كاشرٌ عن أنيابه . فقال القَافهُ[4] من بنى أسد : أُعقروه . فقال لَقيط : والله لا يُعقَر حتى يكون فحلَ إبلى غداً . وكان البعير من عَصافير النُّعمان بن المنذر[5] التى أخذها قُرة بن هُبيرة ابن عامر بن سَلَمة بن قُشَير . ثم أستقبلهم مُعاويه بن عُبادة بن عُقيل ، وكان أعسرَ ، فقال :

أنا الغلامُ الأعسرْ والخيرُ فىَّ والشرّْ
والشرُّ فىَّ أكثر

فتشاءمت به بنو أسد وقالوا : أُرجعوا عنهم وأطيعونا . فرجعتْ بنو أسد . فلم يَشهد جَبلة مع لقيط إلا نَفر يسير ، منهم : شأس ، أبو عمرو بن شأس الشاعر .

(١) فى بعض أصول الأغانى : « يحزر » . (٢) العود : المسن .
(٣) الأحذ : الخفيف شعر الذنب . والأعصل : الملتوى الذنب .
(٤) القافة : الذين يعرفون الآثار : الواحد : قائف .
(٥) فى بعض الأصول : « عصافير المنذر » . والعصافير : من نجائب الإبل .

وقال الناسُ للقيط : ما ترى ؟ قال : أرى أن نَصعد إليهم . فقال شأس : لا تدخُلوا على بنى عامر ، فإنِّى أعلمُ الناس بهم ، قد قاتلتُهم وقاتلونى ، وهزمتُهم وهزمونى ، فما رأيتُ قوماً قطُّ أقلقَ بمنزلٍ من بنى عامر ! والله ماوجدتُ لهم مثلا إلا الشُّجاعَ ، فإنه لا يَقرُّ فى جحره قلقاً ، وسيخرجون إليكم ، والله لئن بتُّم هذه الليلةَ لا تشعُرون بهم إلا وهم مُنحدرون عليكم . فقال لَقيط : والله لنـدخُلن عليهم . وأتوهم وقد أخذوا حِذْرهم . وجَعل الأحوص ابنَه شُريحاً على تَعبئة الناس . وأقبل لَقيطٌ بأصحابه مُدِلِّين ، فأسندوا[1] إلى الجبل حتى ذَرَّت الشمس . فَصعِد لَقيط فى الناس وأخذ بحافَتَى الشِّعب . فقال بنو عامر للأحوص : قد أتوك . فقال : دَعُوهم . حتى إذا نَصَفوا الجَبـل وانتشروا فيه ، قال الأحوص : حُلُّوا عُقُل الإبل ثم أحـدِروها واتَّبعوا آثارها ، ولْيُتْبِـعْ كُلُّ رجل منكم بعـيرَه حجَرين أو ثلاثة . ففعلوا وصاحوا بها ، فلم يفجأ الناسَ إلا والإبلُ تُريد المـاءَ والمَرعى . وجعلوا يرمُونهم بالحجارة والنَّبل . وأقبلت الإبلُ تَحْطِم كلَّ شىء مَرَّت به . وجعل البعيرُ يُدَهْدِى بيديه كذا وكذا حجراً . وقد كان لَقيطٌ وأصحابُه سَخِروا منهم حيث صَنعوا بالإبل ما صنعوا . فقال رجلٌ من بنى أسد :

زعمتَ أنَّ العِـيرَ لا تُقاتِلُ ... بلى إذا تَقعقعَ[2] الرحائلُ
واختلف الهِنـدىّ والذَّوابلُ ... وقالت الأبطال مَن يُنازل
بَلَى وفيها حَسَبٌ ونائل

وأنحطّ الناس مُنهزمين فى الجبل . فلمـا بلغ الناسُ السهلَ ، لم يكن لأحدٍ هِمةٌ إلا أن يَـذهب على وجهه . فجعل بنو عامر يَقتلونهم ويَصرعونهم بالسُّيوف فى آثارهم ، وانهزموا شَرَّ هزيمـة . وأخذ شُريح بن الأحوص فى فُرسان معـه الجُرْفَ ، فقتلوا الناسَ قتلا شديداً هناك . وكان لَقيطُ بن زُرارة يومئذ على الجُرف

(١) أسندوا : اعتمدوا . (٢) تقعقع : تضطرب .

على بِرْذون له مُجَفَّف[١] بدِيباج ، أعطاه كسرى إياه ـ وكان أولَ عربى جُفَّف ـ فلم يمُر به أحد من الجيش إلا قالوا : أنتَ والله قتلتنا وشتمتنا ! فجعل يرتجز ويقول :

يا قومِ قد أحرقتمونى باللَّوْمْ ولم أُقاتل عامراً قبل اليوْمْ
فاليومَ إذ قاتلتُهم فلا لَوْم تقدَّموا وقدِّمونى للقَوم
شتّانَ هذا والعناقُ والنَّوم والمَضجع البارِدُ فى ظِلِّ الدَّوم

فقال شأس يُجيبه :

لكننى قاتلتُها قبلَ اليوم إذ كنتُ لا أعْصَى أُمورى فى القوم

وجعل لقيطٌ يقول : مَن كَرَّ فله خمسون ناقة . ثم إن لقيطاً ضَرب فرسه فأقحمه عليه الجُرفَ ، فطعنه شُريح ـ وقيل طعنه جزء بن خالد بن جعفر . وقيل : عوف بن المُنتفق العُقَيلى ـ فقتله يومئذ . والأصح الأول . وأُرتُث[٢] وبه طعنات . فبقى يوماً ثم مات . وقُتل يومئذ قُريظ بن مَعبد بن زُرارة ، وزيد بن عمرو بن عُدُس . قتلهما[٣] الحارث بن الأبرص العُقيلى . وأُسر حسان بن عامر بن الجَون الكندى ، أسره طُفيل بن مالك بن جعفر . وشَد عوف بن الأحوص على مُعاوية بن الجون الكندى فأسره وجَزَّ ناصيته وأعتقه . فلقيته بنو عبس ، فأخذه قيس بن زُهير فقتله . فأتاهم عوف فقال : قتلتم طَليقى ، فأحْيوه أو ائتونى بمِلْكٍ مثله . فتخوَّفت بنو عبس شرَّه ، وكان مَهيباً . فقالوا . أمهلنا . وانطلقوا حتى أتَوْا أبَا بَراء عامر بن مالك بن جعفر يَستعينونه[٤] على عَوف ، فقال : دونكم سَلْمى ابن مالك ، فإنَّه نَديمُه وصديقُه — وكانا مُشتبهَيْن أحمرَيْن أشقرين ، ضخمةً أنوفُهما ، وكان فى سَلْمى حياء — فأتوه . فقال : سأكلِّم لكم الطُّفَيل بن مالك

(١) مجفف : عليه تجفاف ، وهو ما يجعل على ظهر الفرس ليقيه الأذى .
(٢) أى حمل وهو مجروح . (٣) فى بعض أصول الأغانى « مقتله » .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « يستغيثونه » .

حتى يأخذ منه حَسَّان بن الجون ، أخا معاوية بن الجون[1]، فإنه لا يُنجيكم من عوف إلا ذلك . وايمُ الله ليأتينَّ شَحيحاً . فانطلقوا إلى طُفيل . فقال طُفيل لسَلْمى : قد أتونى بك ، ما أعرفنى بما جئتُم له ! أتيتمونى تُريدون منّى ابن الجَون تَفْتَدون[2] به من عَوف ، خُذوه . فأعطاهم إيَّاه . فأتوا به عَوْفاً ، فجزَّ ناصيته وأعتقه ، فسُمِّى الجَزّاز .

وشهد هذه الوقعةَ لَبيدُ بن ربيعة الشاعر ، وهو ابن تسع سنين ، وقيل : ابن بضعَ عشرة سنة .

وقيل : إن بنى عامر قتلتْ يومئذٍ من تميم ثلاثين غُلاماً . وخَرج يومئذ الحاجبُ بن زُرارة مُنهزماً فلحقه الزَّهْدمان — وهما : زَهدم ، وقيسٌ ، أبنا حَزْن ابن وَهْب العبسيَّان — فجعلا يطرُدان حاجباً ويقولان : أستأسر — وقد قَدرا عليه — فيقول : مَن أنتما ؟ فيقولان : الزَّهدمان . فيقول : لا أستأسر . فبينما هم كذلك إذ أدركهم مالكٌ ذو الرُّقيبة بن سَلَمة بن قُشير ، فقال لحاجب : أستأسرْ . فقال حاجبٌ : من أنت ؟ قال : أنا مالك ذو الرُّقيبة . فقال : أفعلُ ، فلعمرى ما أدركتَنى حتى كدتُ أكون عبداً . فألقى رُمحَه إليه ، فاعتنقه زَهدم فألقاه عن فَرسه ، وصاح حاجب : ياغوثاه ! وجعل زَهدم يُريغ[3] قائمَ السَّيف . فنزل مالكٌ ذو الرُّقيبة فاقتلع زَهْدماً عن حاجب . فمَضى زَهدم وأخوه حتى أتيا قيس ابن زُهير بن جَذيمة ، فقالا : أخذ مالكٌ أسيرَنا . فقال : ومَن أسيرُكما ؟ قالا : حاجب بن زُرارة . فخَرج قيسٌ حتى وقف على بنى عامر ، فقال : إن صاحبكم أخذ أسيرَنا . قالوا : ومَن صاحبُنا ؟ قال : مالك ذو الرُّقَيبة أخذ حاجباً من الزَّهْدمَيْن . فجاءهم مالكٌ فقال : ما أخذتُه منهما ، ولكنَّه استأسر لى ، وتَركهما . فلم يَبرحوا

(١) العبارة فى غير التجريد : « سأكلم لكم طفيلا حتى يأخذ أخاه فإنه لا ينجيكم ... الخ » .
(٢) فى غير التجريد : « تقيدون » . (٣) يريغ : يطلب .

حتى حكّموا حاجباً فى ذلك ، وهو فى بَيت ذى الرُّقيبة ، فقالوا : مَن أسرك يا حاجب : فقال ؟ أما مَن ردَّنى عن قَصدى ومَنعنى أن أنجوَ ورأى منِّى عورةً فتركها فالزَّهدمان ، وأمَّا الذى أستأسرتُ له فمالك ، فحكّمونى فى نفسى . فقال له القوم : قد جعلنا إليك الحُكْم فى نَفسك . فقال : أمَّا مالكٌ فله ألفُ ناقة ، وللزَّهدمين مائة .

وذُكر أنه لمّا أنهزم الناس يومئذ أتبعتْهم بنو عامر وحُلفاؤهم يقتلون ويأسرون ، فأُسر عُتيبة بن الحارث بن شهاب يومئذ ، فقُيِّد فى القِدّ ، فكان يبول على قِدِّه حتى عَفِن . فلما دخل الشهرُ الحرام هَرب فأفلت منهم بغير فِداء .

وذُكر أن يوم شِعب جبلة هذا كان قبل الإسلام بتسع وخَمسين سنة ، وقبل مولد النبىّ صلى الله عليه وسلم بتسع[1] عشرة سنة . ووُلد النبىُّ صلى الله عليه وسلّم عامَ الفِيل ، وبُعث صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة من مولده ، وقُبض وهو ابن ثلاثٍ وستِّين سنة .

وذُكر أن عامر الطُّفيل وُلد يوم شعب جبلة عند فَراغ الوقعة ، وقَدِم على النبىِّ صلى الله عليه وسلم وهو ابنُ ثمانين سنة ، وكان قُدومه عليه فى السنة التى قُبض فيها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم .

وقال المُعقِّر بن أوس بن حِمار البارقىّ فى يوم شِعب جَبلة :

أمِن آل شَعثاء الحُمولُ البَواكرُ ... من[2] اللَّيل أم زالتْ قُبيلُ الأباعرُ
وحلَّت سُليمى فى هِضابٍ وأيكة ... وليس عليها يوم ذلك قادر
وألقت عَصاها واستقرَّت بها النَّوَى ... كما قَرَّ عيناً بالإياب المُسافر
وصَبَّحها أملاكُها بكَتيبةٍ ... عليها إذا أمستْ من الله ناظِر

(١) فى النقائض : « بسبع » . (٢) فى بعض أصول الأغانى : « مع » .

معاويةُ بن الجَون ذُبيانُ حوله ... وحَسَّانُ فى جَمْعِ الرِّباب مُكاثِرِ
فمَرُّوا بأَطراف[1] البيوت فردَّهم ... رجالٌ بأَطراف الرِّماح[2] مَساعِرِ
وقد جَمَعوا جَمعاً كأنَّ زُهاءه ... جَرادٌ هَوى فى هَبْوةٍ مُتطايِرِ
فباتُوا لنا ضَيْفاً وبِتْنا بنَعْمةٍ ... لنا مُسْمِعاتٌ بالدُّفوف وسامِرِ
ولم نَقْرِهم شيئاً ولكنَّ[3] قَصْرَهم ... صَبوحٌ لنا من مَطلع الشَّمس حازِرِ
صَبحناهمُ عند الشُّروق كتائباً ... كأَركان سَلْمى شَبرُها[4] مُتواتِرِ

ذكر خبر عفيرة وعمليق الملك

شىء عن عمليق

كان عِمْليق مَلِك طَسْم بن لَاوَذَ بن إرم بن سام بن نُوح عليه السلام. وكان يَحكم على طَسم، وجَديس؛ وهم ولد جديس بن عابر[5] بن إرم بن سام ابن نوح. وكانت منازلهم فى موضع اليمامة. وكان ملكاً ظالماً غاشماً، بلغ ظُلمه أنه أَمر ألَّا تُهدى بِكر من جَديس إلى زَوجها حتى يَفْترعها المَلك أولاً قبل زَوجها. فلَقيت جَديس من ذلك بلاءً وجَهداً وذُلاً.

خبره مع عفيرة

فلم يزل الأمر كذلك حتى زُوِّجت الشَّمُوس ـ وهى عَفيرة بنت عبَّاد الجديسيَّة ـ فلما أرادوا أن يُهدوها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عِمْليق المَلِك لينالَها قبله، ومعها القِيان يتغنَّيْن:

اِبْدَىْ بِعِمْليقٍ وقُومى واركبى ... وبادِرى الصُّبحَ لأَمرٍ مُعْجِبِ
فسوف تَلْقَين الذى لم تَطْلُبى ... وما لِبِكْرٍ عنده من مَهرب

فلما دخلت عليه افترعها وخَلَّى سبيلها. فخرجت إلى قومها فى دِمائها، شاقَّةً

(١) فى بعض أصول الأغانى: «بأطناب» وهى الحبال تشد بها البيوت. يريد أطرافها ونواحيها.
(٢) مساعر: يوقدون الحرب فتحمى بهم؛ الواحد: مسعر.
(٣) قصرهم: جهدهم وغايتهم. وفى بعض أصول الأغانى: «قصدهم».
(٤) الشبر: الإعطاء. وفى التجريد: «سيرها».
(٥) فى غير التجريد: «لاوذ». تحريف. فثمود وجديس، ابنا عابر. وطسم وعملاق وأميم، أبناء لاوذ. (انظر السيرة لابن هشام ج ١ ص ٨).

دِرْعها من قُبُل و من دُبُر ، والدم يسيل ، وهى فى أقبح مَنظر ، وهى تقول :

لا أحدٌ أذَلُّ من جَديسِ ... أهكذا يُفعل بالعَرُوسِ
يَرضَى بهذا يا لَقومى حُرٌّ ... أهدَى وقد أُعطى وَسِيقَ المَهْرُ
لأَخْذةُ الموت كذا لنفسِهِ ... خيرٌ مِن أن يُفعل ذا بِعِرْسِهِ

شعر عفيرة فى تحريض قومها وهو الشعر الذى فيه الغناء

وقالت تحُرض قومها فيما أُتِى إليها — والبيت الأول والثالث هو الشِّعر الذى فيه الغناء ، وافتتح به أبو الفرج أخبار عِملاق وعَفيرة :

أيحمُلُ ما يُؤْتَى إلى فتياتِكم ... وأنتم رِجالٌ فيكمُ عَددُ النَّمْلِ
وتُصبِحُ تَمْشى فى الدِّماء عَفيرةٌ ... عفيرةُ(١) زُفَّت فى الدِّماء إلى البَعل
فلو أننا كُنا رجالاً وكنتمُ ... نِساءً لكُنَّا لا نُقِرُّ بذا الفِعْل
فموتُوا كراماً أو أميتوا عدوَّكم ... ودِبُّوا لنار الحَرب بالحَطَب الجَزْل
وإلّا فخَلُّوا بطنَها وتحمَّلوا ... إلى بَلدٍ قَفْرٍ ومُوتُوا من الهُزْل
فلليَنْ خيرٌ من مُقَامٍ على أذًى ... وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على ذُلّ
فإن أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه ... فكُونوا نِساءً لا تُعاب من الكُحل
ودونكمُ طِيبَ العَروس فإنما ... خُلقتمْ لأثواب العَرُوس(٢) وللغِسْل
فبُعداً وسُحْقاً للذى ليس دافعاً ... ويَختال يمشى بيننا مِشْيَةَ الفَحْل

غدر جديس بعمليق

فلما سمع الأسودُ أخوها قولَها ، وكان سيِّداً مُطاعاً ، قال لقومه : يامعشر جَديس ، إنّ هؤلاء القوم ليسوا بأعزَّ منكم فى دِياركم إلّا بما كان من مُلك صاحبهم علينا ، ولولا عجزُنا وإدهانُنا(٣) ما كان له فضلٌ علينا ، ولو امتنعنا لكان لنا منه النَّصَف ؛ فأَطِيعونى فيما آمرُكم به ، فإنه عزُّ الدَّهر ، وذَهاب ذُل العُمر ،

(١) فى الكامل لابن الأثير (١ : ٢٥١) : « جهارا » . وفى الصبح المنير فى شعر أبى بصير (ص ٧٤) : « عشية » .
(٢) الغسل : ما يغتسل به .
(٣) الإدهان : المصانعة واللين .

وأقبلوا رأيى . فقالوا — وقد أحماهم ما سمعوا من قوله — : إنا نُطيعك ، ولكنَّ القوم أكثر وأقوى وأحمى . قال : فإنى أصنعُ للمَلِك طَعاماً ثم أدعوهم إليه جميعاً ، فإذا جاءوا يرفلون فى الحُلل ثُرنا إلى سُيوفنا وهم غارُّون[1] فأهمدناهم بها . قالوا : نَفعل . فصَنع لهم طعاماً كثيراً وخَرج به إلى ظَهر بلدهم ، ودَعا عِمليقاً وسأله أن يتغدَّى هو وأهلُ بيته . فأجابه إلى ذلك . فخَرج إليه مع أهله يرفُلون فى الحُلل ، حتى إذا أخذوا مجالسَهم ومدُّوا إيديهم إلى الطعام ، أخذوا سيوفهم من تحت أقدامهم . فشدَّ الأسود على عِمْليق المَلك فقتله ، وكُل رجل على جَليسه حتى أماتوهم . فلما فَرغوا من الأشراف شدُّوا على السِّفلة ، فلم يدعوا منهم أحداً .

هلاك جديس بغزو حسان لها وهرب الأسود وموته

ثم إن بقيَّةً من طَسم لجئوا إلى حسَّان بن تُبَّع ملك اليمن ، فغزا جديساً وأخرب بلادها . فهرب الأسود قاتل عِمْليق فأقام بجبلَىْ طيئ ، قبل نُزول طيئ إياهما ، وطيئ يومئذ تسكن بعض نواحى اليمن ، وسيدهم يومئذ أُسامة بين لُؤى ابن الغَوث بن طيئ ، وكان الوادى الذى نزلوا به مَسبعةً ، وهم قليلٌ عددهم ، وكان ينتابهم بعيرٌ فى أول زمان الخريف ، ثم يذهب فلا يَدرون أين يذهب ولا يَرونه إلى قابلٍ . وكانت الأزد قد خَرجت من اليمن فى أيام سَيل العَرِم الذى ذكره الله فى كتابه . فاستوحشت طيئ لذلك وقالت : قد ظَعن إخواننا فصاروا إلى الأرياف . فلما همُّوا بالظَّعن قالوا لأسامة : إنّ هذا البعير يأتينا من بلاد ريفٍ وخِصب ، وإنا لنرى فى بَعَره النَّوى ، فلو أننا نتعهَّده عند انصرافه فشَخصنا معه لعلَّنا نُصيب مكاناً خيراً من مكاننا هذا . وجمعوا أمرهم على هذا . فلما كان الخريف جاء البعيرُ فضرب فى إبلهم . فلما انصرف احتملوا فاتبعوه يَسيرون بسَيره ويَبيتُون حيث يَبيت ، حتى هَبط على الجَبلين ، فهجمت طيئ على النَّخل فى الشِّعاب ، وعلى مواشٍ كثيرة . فإذا هم برجلٍ فى شِعب من تلك الشعاب ،

(١) غارون : غافلون .

وهو الأسود بن عَبّاد الجَديسى ، فهالهم ما رأوا من عِظم خَلْقه وتخوّفوه ، ونزلوا ناحية من الأرض واُستَبروها[1] هل يرون فيها أحداً غيره ، فلم يروا . فقال أُسامة لابن له ـ يقال له : الغوث ـ : أى بنى، إنَّ قَومك قد عَرفُوا فضلَك عليهم فى الجَلَد والبأس والرَّمى ، فإن كفيتَنا هذا الرَّجل سُدْت قَومك آخرَ الدَّهر ، وكنتَ الذى أنزلتَنا هـــذا البلد . فانطلق الغوثُ حتى أتى الرجل ، فكلّمه وساءله . فعجب الأسودُ من صِغر خلق الغَوث ، فقال له : من أين أقبلتم ؟ قال : من اليمَن . وأَخبره بخَبر البعير ومَجيئهم معه وأنَّهم رهبوا ما رأوا مِن عِظم خَلقه وصِغَرهم عنه . وشَغلوه بالـكلام ، فرماه الغوث فقتله . فأقامت طيئٌ بالجبلَيْن بعده .

(١) أى اختبروها ونظروا فيها ؛ من « السبر » الذى هو الاختبار .

أخبار عائشة بنت طلحة (*)

نسبها

عائشة بنت طلحة بن عُبيد الله بن عُثمان بن عامر بن عَمْرو بن كَعْب بن سعد أبن تَيم بن مُرَّة بن كَعب بن لُؤى . وأُمُّها أُمُّ كلثوم بنت أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه .

بينها وبين زوجها فى ستر وجهها

وكانَت أجملَ نساء عَصرها . وكانَت لا تستر وجهَها من أحدٍ ، فعاتبها زوجُها مُصعب بن الزُّبير على ذلك . فقالَت : إن الله تعالى وَسَمنى بمِيسَم جَمال أحببتُ أن يراه الناسُ ويَعرفُوا فَضْلى عليهم ، فما كنتُ لأستُرَه ، والله ما فىَّ وَصمةٌ يقدِر أن يذكُرَنى بها أحد . وطالت مُرادَّة مُصعب إياها فى ذلك . وكانت شرسةَ الخُلق .

نساء تيم

وكذلك نساء بنى تَيم هنَّ أشرسُ خلق الله وأحْظاه عند أزواجهن .

أختها مع زوجها الحسين بن على

وكانَت عند الحُسين بن علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ أختُها أم إسحاق بنتُ طَلحة ، فكان يقول : والله لرُبَّما حملتْ ووضعتْ وهى لى مُصارمةٌ لا تُكلِّمنى .

مغاضبة عائشة زوجها مصعبا وتوسط الشعبى بينهما

وذُكر أن عائشة بنت طلحة قالت لمُصعب : أنتَ علىَّ كظَهر أُمى ! وقَعدت فى غُرفةٍ هيَّأت فيها ما يُصلحها . فجهَد مُصعب أنْ تُكلِّمه ، فأبَت . فبعث إليها أبن قَيس الرُّقيَّات ، فسألها كلامَه . فقالَت : كيفَ بيمينى ؟ قال : هاهنا الشَّعبىّ

(*) ساق أبو الفرج قبل أخبار عائشة بعض أخبار لابن أبى ربيعة وصاحبه العذرى لا تعدو صفحات .

فقيهُ أهل العراق ، فاُستفتيه . فدخل عليها فأخبرتْه . فقال : ليس هـذا بشىء . فقالت له : أتُحلِّنى وتخرج خائباً ! فأمرت له بأربعة آلاف درهم .

شعر ابن الرقيات فيها وهو الشعر الذى فيه الغناء

وقال ابنُ قيس الرقيات لمّا رآها ، الشِّعرَ الذى فيه الغناء واُفتتح به أبو الفرج أخبار عائشة ، وهو :

جِنِّيـــةٌ بَرزتْ لتقتُلنـا ... مَطليَّةُ الأَقراب[1] بالمِسْكِ

عَجباً لمثلك لا يكونُ له ... خَرْجُ العِراقِ ومِنْبرُ المُلكِ

ترضاها أشعب لمصعب

وذُكر أنَّ عائشة بنت طَلحة غضبتْ يوماً على مُصعب ، وكان أشعبُ يألفه ، فشَكا ذلك مُصعب إلى أشعب ، فقال : ما لى إنْ رضيتْ ؟ قال : حُكمك . قال : عشرة آلاف درهم ؟ قال : هى لك . فانطلق أشعبُ حتى أتى عائشة ، فقال : جُعلتُ فداءك ! قد عرفتِ حُبِّى لك ومَيْلى قديماً وحديثاً إليك من غير فائدة ولا مَنالة ، وهـذه حاجةٌ قد عرضتْ تَقْضين بها حقِّى ، وتَرتهنين بها شكرى . قالت : وما عندك ؟ قال : قد جَعل لى الأَميرُ عشرةَ آلاف دِرهم إن رضيتِ عنه . قالتَ : ويحك ! لا يُمكننى ذلك . قال : بأبى أنتِ وأُمى ! فارْضَى عنه حتى يُعطِينَى ثم عُودى إلى ما عَوَّدك الله من سُوء الخُلق . فضحكت منه ، ورضيتْ عن مُصعب .

زواجها من عبدالله ابن عبد الرحمن وأولادها

وذُكر أنَّ أول أزواج عائشة بنت طلحة ابنُ خالها عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، زوجتْها إيَّاه أُمّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وهى خالتها . وهو أبو عُذرتها[2] . ولم تَلد من أحدٍ من أَزواجها سِواه ، ولدتْ له عِمرانَ ، وبه كان يُكنى ، وعبد الرحمن ، وأبا بكر ، وطَلحة ، ونَفيسة —

(١) الأقراب : جمع قرب ، بالضم وبضمتين : الخاصرة . والجمع هنا للتوسع .
(٢) أى أول من افتضها وافترعها .

تزوَّجها الوليدُ بن عبد الملك ـ ولكُلِّ عقب ـ وكان طلحة بن عائشة من أجواد قُريش .

إيلاء زوجها منها

قيل : فصارمتْ عائشةُ بنت طلحة زوجَها عبدَ الله وخرجتْ غَضبى عن داره ، فمرَّتْ بالمَسجد وعليها مِلْحفة تُريد خالَتها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فرآها بو هُريرة رضى الله عنه فسبَّح وقال : سبحان الله ! كأنها من الحُور العين ! فمكثتْ عند عائشة رضى الله عنها قريباً من أربعة أشهر . وكان زوجُها قد آلى منها . فأرسلت إليه عمتُه عائشة رضى الله عنها : إنى أخاف عليك الإيلاء[1] . فضمَّها إليه . وكان مُولِياً منها . فقيل له : طَلِّقها . فقال :

يقولون طلِّقها لأُصبح ثاوياً ... مُقيما علىّ الهمُّ ، أحلامُ نائمِ
و إن فراق أهل بيتٍ أُحبّهم ... لهم زلفةٌ عندى لإحدى العظائم

فتُوفى عبد الله بعد ذلك وهى عنده ، فما فَتحتْ فاها عليه . وكانت عائشة أُم المُؤمنين ـ رضى الله عنها ـ تعُد هذا عليها فى ذُنوبها التى تُعدِّدها .

زواجها بمصعب بعد وفاة عبدالله

ثم تزوَّجها بعد عبدِ الله مُصعبُ بن الزُّبير بن العوَّام ـ وكان والى العِراقين لأخيه عبد الله بن الزُّبير ـ فأمهرها خمسمائة ألفِ دِرْهم ، وأهدى لها مثل ذلك .

ما كان من عبدالله أخى مصعب وعبد الملك بن مروان

و بلغ ذلك أخاه عبدَ الله ، فقال : إنَّ مُصعباً قدَّم أيره وأخَّر خَيْره . فبلغ ذلك عبدَ الملك بن مَروان ، فقال : لكنَّه أخّر خيره وأيرَه .

وكتب أبنُ الزُّبير إلى مُصعب يؤنِّبه ويُقسم عليه أن يلحق به بمكة ، ولا ينزل بالمدينة ولا ينزل إلّا بالبيداء ، وقال له : إنِّى لأرجو أن تكون الذى يُخسَف به بالبيداء ، فما أمرتُك بنُزولها إلا لهذا . فصار إليه وأرضاه من نفسه ، فأمسك عنه .

(١) الإيلاء : أن يقسم الرجل ألا يقرب امرأته . وحكمه أن يتربص الرجل أربعة أشهر ثم يوقف ، فإما أن يطلق بعد ذلك أو يرجع .

معاشرتها مصعبا وحيلة ابن أبي فروة

قيل :

كان مُصعب لا يَقدر عليها إلا بتَلاحٍ ينالُها منه و بضَرْبها . فشَكا ذلك إلى عبد الله بن أبى فَرْوة كاتبه . فقال : أنا أكفيك هذا إن أذنتَ لى . فقال : نعم ، افعل ما شئتَ فإنها أفضلُ شىء نلتُه فى الدُّنيا . فأتاها ليلاً ومعه أسودان ، فاستأذن عليها . فقالت: أفى مثل هذه الساعة ! قال : نعم . فأدخلتْه . فقال للأسودين : احفرا هاهنا بئراً . فقالت له جاريتُها : وما تَصنع بالبئر ؟ فقال : شُؤم مولاتِك ، أمرنى هذا الفاجرُ أن أدفنَها حيَّةً ، وهو أسفكُ خَلق الله لدمٍ حرام . فقالت عائشة : فأنظرنى أذهب إليه . فقال : هيهات ! لا سبيلَ إلى ذلك . وقال للأسودين : احفرا . فلما رأت الجِدَّ منه بكتْ وقالتْ لابن أبى فَروة : إنَّك لقاتلى ؟ قال : مامنه بُدّ ، و إنى لأعلم أن الله سيَجزيه بعدك ، لكنه قد غَضب ، وهو كافر الغَضَب . قالت : وفى أى شىء أغضبتُه ؟ قال : فى امتناعك عنه ، وقد ظنَّ أنك تُبغضينه وتتطلَّعين إلى غيره . قالَت : أنشدك الله إلّا عاودتَه ! قال : إنّى أخاف أن يقتُلنى . فبكتْ ، و بكى جواريها . فقال : قد رَقَقتُ لك ، وحلَف لها أنه يُغرِّر بنفسه، وقال لها : فما أقول ؟ قالت : تَضمن عنّى أنى لا أعود أبداً . قال لها : فمالى عندك ؟ قالتْ: قيامٌ بحقك ماعشتُ . قال : فأَعطينى المواثيق . فأعطتْه . فقال للأسودين : مكانَكما . وأتى مُصعباً فأخبره . فقال له : استوثق منها بالأيمان . ففعلتْ وصلحتْ بعد ذلك لمُصعب .

آثرت النوم على لؤلؤات قدمها مصعب

وقيل :

دَخل عليها مُصعبٌ يوماً وهى نائمة ، ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتُها عشرون ألف دينار . فأَنبهها ونثر اللُّؤلؤ فى حِجرها . فقالتْ له : نَومتى كانت أحبَّ إلى مِن هذا اللُّؤلؤ .

زواجها بعمر بن عبيد الله

ولما مَلك عبدُ الملك بن مَروان العراقَ ، وقُتل مُصعب بن الزُّبير ، ولّى

عبدُ الملك العراقَ أخاه بِشْر بن مروان . فخَطب عائشةَ بنت طلحة . وَقدِم عمرُ ابن عُبيد الله بن مَعمر التَّيمىّ من الشام فنزل الكوفة ، و بلغه أن بشر بن مروان خَطب عائشة بنت طلحة ، فأنفذ إليها جاريةً له وقال : قولى لبنت عَمِّى : أبنُ عمّك يُقرئك السلام و يقولُ لك : أنا خيرٌ من هذا المَبسور المَطحول[1] ، وأنا ابنُ عمّك وأحقُّ بك ، و إن تزوجتُك ملأتُ بيتَك خيراً . فتزوَّجته ، و بنَى بهـا بالحِيرة ، ومَهَّدت له سبعةَ أفرشةٍ عرضُها أربعةُ أذْرع فأصبح ليلةَ بَنَى بها عن تِسع . فلقيتْه مولاةٌ لها فقالت : أبا حَفص ، فديتُك ! قد كَمُلْت فى كُل شىء حتى فى هذا . !

الحديث عن زواجها من عمر ابن عبيد الله

وذُكر أن عُمر بن عبيد الله حمل إليها ألفَ ألفِ درهم : خمسمائة ألف درهم مهراً ، وخمسمائة ألف درهم هدية . وكان وَعد مولاتها بألف دينار وقال : هذا لك إن دخلتُ عليها الليلةَ . فحُمل المال وأُلقى فى الدار وغُطِّى بالثياب . وخرجت عائشة فقالت لمولاتها : ما هذا ، أفرش أم ثياب ؟ فقالت : انظُرى إليه . فنَظرت ، فإذا هو مالٌ . فتبسَّمتْ . فقالت مولاتُها : أجزاء من حمل هذا أن يَبيتَ عَزَباً ؟ قالت : عائشة : لا والله ، ولكن لا يجوز دخُوله إلّا بعد أن أتزيَّن وأستعدَّ . قالت : بماذا ؟ فوالله لوجهك أحسنُ من كُل زينة ، وما تَمُدِّين يدَك إلى طيب أو ثوب أو مال أو فرش إلّا وهو عندك ، وقد عزمتُ عليك أن تأذنى له . قالت : أفعلى . فذهبتْ إليه فقالت : بِتْ بنا الليلةَ . فجاءهم عند العشاء الآخرة . فأُدنى منه طعام ، فأكل الطعام كُلَّه حتى أعرى الخِوان ، وغَسل يديه ، وسأل عن المُتوضأ ، فأخبرتُه فقام فتوضأ . قالت المولاة ؟ ثم قام فصلَّى حتى ضاق صَدْرى . ثم قال : أعليكم إذنٌ ؟ قلتُ : نعم ، فادخُلْ . فأدخلتُه وأسبلتُ السِّتر عليهما . فعددتُ له فى بقيَّة الليلة على قِلَّتها سبعَ مرّاتٍ[2] دَخل المتوضأ فيها . فلما أصبحنا وقفتُ

(١) المبسور : الذى به داء البواسير . والمطحول : الذى أصيب طحاله .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : « سبع عشرة مرة » .

على رأسه ، فقال ؟ أتقولين شيئاً ؟ قلتُ : نعم ، ما رأيتُ مثلكَ ، أكلتَ أكْلَ سَبعة ، وصلَّيتَ صلاة سَبعة ، وفعلتَ فعل سَبعة فضحك وضَرب بيده على مَنْكِب عائشة وقال : كيف رأيتِ أبن عمك ؟ فضحكت وغطَّت وجهَها ، وقالت :

قد رأينـــاك فلم تَحْلُ لنـــا وخَبرناك فلم نرضَ الخَـــبرْ

وفاة عمر بن عبيد الله وشأنها بعـــده

وتُوفى عنها عمر بن عبيد الله هذا ، فندبتْه قائمة ، ولم تندُب أحداً من أزواجها إلّا جالسة . فقيل لها فى ذلك . فقالت : إنه كان أكرَمهم علىَّ ، وأمسّهم بى رَحِماً ، فأردتُ ألّا أتزوَّج بعده . وكانتْ نُدْبة المرأة زوجَها قائمة ممَّا تفعله مَن لا تُريد أن تتزوَّج بعده .

وذُكر أن وفاةُ عمر كانت فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وأنه خَطبها جماعةٌ ، فلم تقُم لأحد منهم[1] .

هى وسكينة فى الحج

وذُكر أن عائشة بنت طلحة حجَّت سنة ، وحجَّت تلك السنة سُكَينةُ بنت الحُسين بن على ، وكانَت ضَرَّتها عنـد مُصعب بن الزُّبير ، وكانت عائشة أحسنَ منها ثقَلاً[2] وآلة ، فقال حاديها :

عائش يا ذاتَ البغال السِّتّينْ لازِلْتِ ما عِشْتِ كذا تَحُجِّينْ

وشَق ذلك على سُكينة ، فنزَل حاديها فقال :

عائش هـذى ضَرَّةٌ تَشكوكِ لولا أبوها ما اهتـدى أبوكِ

فأمرت عائشة حاديها أن يكُفّ .

هى وعاتكة بنت يزيد فى الحج

وذُكر أن عاتكة بنت يزيد بن مُعـاوية بن أبى سُفيان استأذنتْ زوجَها عبدَ الملك بن مروان فى الحجِّ ، فأذن لها وقال : أرفعى حوائجك واستظهرى ، فإن

(١) هذه رواية التجريد . وفى غيره : « فردتهم ولم تتزوج بعده أحداً » .
(٢) الثقل : المتاع .

عائشة بنت طلحة تحُج . ففعلت، فجاءت بهَيئة جَهَدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا مَوكِبٌ عظيم قد جاء فضَغطها وفرّق جماعتها . فقالت : أرى هذه عائشةَ بنت طلحة ! فسألت عنه ، فقالوا : هذه جاريتها [1] . ثم جاء موكبٌ آخر أعظم من ذلك الموكب . فقالوا : عائشة ! عائشة ! فضَغطهم . فسألت عنه . فقالوا : هذه ماشطتُها . ثم جاءت مواكبُ على هذه الحالة بحاشيتها ، ثم أقبل موكبٌ فيه ثلاثمائة راحلة عليها القِباب والهوادجُ ، فقالت عاتكة : ما عند الله خيرٌ وأبقى .

وفودها على هشام ابن عبد الملك

وذُكر أن عائشة بنت طلحة وَفدت على هشام بن عبد الملك فقال لها : ما أوفدك ؟ قالت : حَبَست السماء قَطْرها ، ومَنع السلطانُ الحقّ . فقال : إنى أصل رَحمك ، وأعرف حقّك . ثم بعث إلى مشايخ بنى أُمية . فقال : إنّ عائشة عندى ، فاسمرُوا معى الليلةَ . فحضروا ، فما ذكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيّامها إلّا أفاضت فيه ، وما طلع نَجم ولا غار إلّا سَمّته . فقال هشام : أما الأوّل فلا أُنكره ، وأما النُّجوم فمن أين لك عليها ؟ فقالت : أخذتُها عن خالتى عائشة — تعنى أُم المؤمنين رضى الله عنها — فأمر لها بمائة ألف درهم وردَّها إلى المدينة .

شىء عن عمرو بن شأس

ثم ذكر أبو الفرج عمرو بن شأس الأسدىّ ، وشعره فى أبنه عِرار ، وهو :

أرادت عِراراً بالهَوان ومن يُرِدْ عِراراً لعمرى بالهَوان فقد ظَلَمْ

وقد كان تقدَّم منّا ذِكر ذلك ، فلا فائدة فى الإعادة .

(١) فى غير التجريد : « خازنتها » .

أخبار ليلى الأخيلية

وتوبة بن الحمير

نسبها

هى ليلى بنت عبد الله بن الرَّحَّال بن شَدَّاد بن كعب بن مُعاوية ، وهو الأَخْيل فارسُ الهرّار ، ابنُ عُبادة بن عُقيل بن كَعب بن رَبيعة بن عامر بن صَعصعة .

طبقتها فى الشعر

وهى من النِّساء المُقدَّمات فى الشِّعر ، من شُعراء الدولة الأموية[1] .

زواجها فى بنى الأدلع وزيارة توبة لها وما كان من قومها معه

وكان توبة بن الحُمَيِّر بن حَزن بن كَعب بن خَفاجة بن عمرو بن عُقَيل بن كَعب بن رَبيعة بن عامر بن صَعصعة يَهواها ، فخَطبها إلى أبيها ، فلم يُزوِّجه إيَّاها وزوَّجها فى بنى الأَدلع . وكان توبة إذا جاء لزيارتها تخرُج إليه مُتبرقعة . فجاء بعد تَزويجها لزيارتها ، كما كان يجىء ، فخَرجت إليه سافرةً ، ولم يَر منها إليه بشاشةً كما كان يرى ، فعلم أن ذلك لبعض ما كان . فرجَع إلى راحلته فركبها ومَضى . وبلغ بنى الأَدلع أنه أتاها وأنصرف ، فتتبَّعوه ، ففاتهم . فقال فى ذلك قصيدتَه التى أولُها :

نأتْك بلَيْلَى دارُها ما تَزورُها ... وشَطَّت نَواها واسْتَمَر[2] مَريرُها

وهى طويلة . ومنها

حمامةَ بَطنِ الواديَيْن تَرنَّمى ... سقاكِ من الغُرِّ الغوادِى مَطيرُها

---

(١) فى غير التجريد : « من شعراء الإسلام » .

(٢) فى جمهرة أنساب العرب (ص ٢٧٤) : « توبة بن الحمير بن ربيعة بن كعب بن خفاجة » . وفى بعض الأصول من الأغانى : « حزم » مكان « حزن » .

(٣) استمر : استحكم . والمرير : العزيمة .

أَبِينى لنـــا لا زال ريشُك ناعماً ... ولا زلتِ فى خَضراء دَانٍ[1] بَرِيرُها
وأُشرف بالقَوزِ اليَفـــاع لعلَّنى ... أَرى نارَ لَيلى أو يرانى[2] بَصيرُها
وكنتُ إذا ما جئتُ ليـــلى تَبَرقعت ... فقد رابنى منها الغـــداةَ سُفورها
علىّ دِماءُ البُـدْن[3] إن كان بَعلُها ... يرى لِىَ ذَنباً غـيرَ أنِّى أَزُورها
وأنِّى إذا ما زُرتها قلتُ يا أُســلمى ... وما كان فى قولى سَـلمى ما يَضِيرُها
وغَـيِّرنى إن كنتِ لَمَّا تَغـيَّرى ... هَواجرُ تَـكْتَنِّينها[4] وأُســيرُها
وأَدْماءَ من سِرِّ المَهارَى كأنها ... مَهـاةُ صُوَارٍ[5] غيرَ ما مَسَّ كُورُها
قَطعتُ بهـا أجوازَ كُلِّ تَنوفةٍ ... مَخُوفٍ رَداها كلَّما اُستنَّ[6] مُورُها

جوابها للحجاج عما كان بينها وبين توبة

وذُكر أنَّ الحجَّاج بن يوسف قال لليلى الأَخيليـة : إنَّ شـبابك قد مَضى فولَّى ، واضمحلّ أَمرك وأَمر توبة ، فأُقسم عليك إلا صَـدَقْتِنى : هل كان بينكما ريبةٌ قطُّ ، أو خاطبك فى ذلك قَط ؟ فقالت : لا والله أيها الأمير ، إلا أنه قال لى ليلةً وقد خلونا كلمةً ظننتُ أنه قد خَضع فيها لبعض الأمر ، فقلتُ له :

وذى حاجةٍ قُلنا له لا تَبُح بها ... فليس إليها ما حَييتَ سَبِيلُ
لنا صاحبٌ لا يَنبغى أنْ نَخونه ... وأنتَ لأُخرى فارغٌ وحَلِيل

ولا والله ما سمعتُ منه من بعدها ريبةً حتى فرّق بيننا الموت . قال الحجّاج :

---

(١) البرير : ثمر الأراك . وفى بعض أصول الأغانى : « نميرها » . وفى الأمالى : « غض نضيرها » .

(٢) القوز : الكثيب من الرمل . واليفاع : المشرف . وبصيرها ، أى الذى جلس إلى النار يتعرف القاصدين .

(٣) البدن : جمع بدنة ، وهى الناقة ، والبقرة تسمن وتذبح بمكة .

(٤) تكتنينها : أى تستترين منها .

(٥) الأدماء : التى أشربت سواداً وبياضاً . والمهارى : إبل منسوبة إلى مهرة بن حيدان ، أبى حى من العرب . والمهاة : البقرة الوحشية . والصوار : قطيع البقر .

(٦) أجواز : جمع جوز ، وهو الوسط . والتنوفة : الفلاة . واستن : هاج . والمور : الغبار تثيره الرياح .

فما كان منه بعد ذلك ؟ قالت : وجَّه صاحباً له إلى حاضرنا ، فقال : إذا أتيتَ الحاضرَ من بنى عُبادة فاعْلُ شَرَفاً ثم اهتف بهذا البيت :

عفا الله عنها هَل أَبيتَنَّ ليلةً مِن الدهرِ لا يَسْرِى إلىَّ خَيالُها

فلمَّا فَعل الرجُل ذلك عرفتُ المعنى ، فقلت :

وعنه عفا ربِّى وأَحسن حِفْظَه عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالُها

ذكر مقتل توبة بن الحمير

مختصراً

قيل :

كان مروان بن الحكم ، وهو يتولّى المدينة لمُعاوية بن أبى سُفيان ، قد ولّى همَّام بن مُطرِّف العُقيلى صَدقات بنى عامر ، فاختصم بنو خَفاجة و بنو عُقيل عند همَّام فى بعض أُمورهم ، وتوبةُ بن الحُمَيِّر حاضرٌ يومئذ . وقد كانت جَرت بين تَوبة و بين بنى عوف بن عُقيل ملاحاةٌ ، فوثب يومئذ ثَورُ بن أبى سِمْعان بن كَعب بن عَوف بن عامر بن عُقَيل على توبة فضَربه بجُرْزٍ (١) ، وعلى توبة الدِّرعُ و البَيْضة ، فجَرح أنفُ البيضة وجهَ توبة . فأمرَ همَّامٌ بثَوْر بن أبى سِمْعان فأُقْعِد بين يدى توبة ، فقال : خُذ بحقّك يا توبة . فأَبى توبةُ أن يَقْتصَّ وأتهم هَماماً بأن ذلك عن أمره . ثم بَلغَ توبةَ أن ثوراً أخرج فى نَفر من رَهطه يُريد ماءً لهم ، فأتبعه توبةُ وسأل عنه ، فقيل له : إنه عند رجل من بنى عامر بن عُقَيل يقال له : ساريةُ ، وكان صديقاً لتوبة . فكره أن يَطْرُقهم عنده وأراد أن يخرُجوا عنه . فأقعد لهم توبةُ رجلَين من أصحابه ، فغفلا . وقال ساريةُ لهم : ادِّرعوا الليلَ فإنِّى لا آمن عليكم توبةَ . فلما فرغ الليلُ فَزِع توبةُ وعَلِم أنَّ ثوراً وأصحابه لا يَبيتون

(١) الجرز : العمود من الحديد .

بتلك الناحية ، وأنَّ صاحبَيه اللذين أرصدهما غَفلا ولم يَصنعا شيئاً ، واقتص آثارَ القوم فوجدها . فبعث إلى صاحبَيْه فأتياه ، فقال : دونكما هـذا الجَملَ فأوقراه من المـاء فى مزادَتَيْه ، ثم اتَّبعـا أثرى ، فإنْ خَفِى عليـكما فإنِّى سأوقد لـكما إن أمسيتما ناراً . وخرج فى إثر القوم فأدركهم مُنتصف النهار . فبـدر إليهم أخوه عبدُ الله بن الحُمَيِّر فرُمى بسَهم فعُقر فَرسه وجُرح ساقه . ورمى توبة ثوراً فى حَلمة ثَدْيه فصرعه . وجال القوم ، فغَشِيهم توبة وأصحـابُه ووضعوا فيهم السلاحَ حتى تركوهم صَرعَى ، وهم سـبعةُ نفر . فقال ثور : انتزعوا هـذا السهم عنِّى . فقال توبة : ما وَضعناه لِنَنزعه . فقال أصحاب توبة لتوبة : انْجُ بنـا فإنا قد أدركنا ثأرنا . فقال تَوْبة : ما أنا بفاعل وما هم إلّا عشـيرتكم ، ولـكن تجىء الرّاوية فأَضع لهم ماءً وأَغسِل عنهم دماءهم وأُوذن قومَهم . وأقام توبةُ حتى أتتهم الراوية قبلَ الليل . فسقاهم وغَسل عنهم الدماء ، وترك فى أسقيتهم ماءً ، ثم جللّهم بالثياب على الشجر ، وأتى سارية ليلاً فعرَّفه ، ثم انصرف إلى قومه . وصبَّح ساريةُ القوم فاحتملهم ، وقد مات ثَورٌ وحدَه وسلم الباقُون . ولم يزل توبةُ خائفاً ، وكان لثَوْر ابنٌ يقـال له : السَّليل ، كثير البَغْى والشَّر ، فبقى مُتتبِّعاً لغِرَّات توبة بن الحُميِّر بأبيه . فأُخبر بغرّة منه وأنه فى قُنَّة يقال لها: قُنَّة بنى الحُميِّر . فركِب نحوه فى ثلاثين فارساً حتى طَرقه . فرقى توبةُ الجبلَ ، فلم يقدِر عليه ، وأخذوا أفراساً له ولإخوته ، ثم انصرفوا عنـه . ثم إنَّ توبة غَزاهم فوجدَ إبلًا واردةً لبنى عَوف على ماء لهم ، فطَردها وخلَّى طريقَ راعيها . وكان صاحبَها هُبيرة بن السَّمِين، أحد[1] بنى عَوف ، وقال لراعيها : إذا أتيتَ ضرع البقرة[2] — يعنى هُبيرة — فأخبره أن توبة أخذ الإبل . وطَرد توبةُ الإبل يومه . وأخبر العبـدُ مولاه بذلك ، فقال : حتى متى هـذا ! ونادى فى عَوف . فاجتمع إليه منهم ثلاثون فارساً فأدركوه . فقام توبةُ

(١) فى غير التجريد : « أخى » .
(٢) فى غير التجريد : « صدغ البقرة » .

إلى فرسه ، فغلبتْه ولم يَقدر أن يُلجمها ولم تَقِرّ له ، فخلَّى طَريقها . وغَشِيه القوم فقتلوه . وطاعنهم عبدُ الله أخوه بالرُّمح حتى انكسر ، فلما فَرغوا من تَوبة مالوا على عبد الله بن الحُمَيِّر فضربوا رجلَه فقطعوها . فلمَّا وَقع على الأرض انتزع سيفَه ثم جَثا على رُكبتيه وجَعل يقول : هلمُّوا ، ولم يشعُر القوم بما أصابه . ثم انصرف القوم . وانهزم ابنُ عمٍّ لتوبة فلحق بعبد العزيز بن زُرارة الكِلابى فأخبره الخبر . فأتى عبدُ العزيز تَوبةَ فدَفنه ، وضَمَّ أخاه . ثم ترافع القومُ إلى مروان ابن عبد الحكم ، فكافأ بين الدَّمَيْن ، وحُملت الجِراحات .

رثاء ليلى له

وقالت ليلى الأخيلية تَرثى تَوبة بن الحُمَيِّر من قصيدة طويلة منها :

فإن تكُن القَتلى بَوَاءً فإنكم ... فتًى ما قتلتُم آل عَوْفِ بن عامرِ
فَتًى كان أحيا من فتاةٍ حَيِيَّةٍ ... وأشجعَ من لَيث بخَفَّان[1] خادر
فنِعْمَ الفتى إن كان تَوبةُ فاجِراً ... وفوق الفتى إن كان ليس بفاجِر
كأن فتى الفتيان تَوبةَ لم يُنِخ ... قلائصَ يَفْحَصْن الحَصَا[2] بالكَراكِر

هى وأسماء بن خارجة عنده الحجاج

وذُكر أن ليلى أنشدت الحجَّاج هذه الأبيات ، وعنده أسماء بن خارجةَ ، فقال لها أسماء : أيتها المرأة ، إنك لتَصِفين هذا الرجل بشىء ما تعرفه العرب ! فقالت : أيها الرجُل ، هل رأيتَ تَوبةَ قطُّ ؟ قال : لا . فقالت : أما والله لو رأيتَه لوددْتَ أن كل عاتقٍ[3] فى بيتك حاملٌ منه . فكأنما فُتَّ فى وجهِ أسماء حَبُّ الرُّمَّان . فقال الحجاج : مالك ومالها !

عود إلى مرثيتها

ومنها :

فتًى كان للمولَى سناءً ورفعةً ... وللطارق السارِى قِرًى غيرَ[4] فاتِرِ

(١) خفان : مأسدة قرب الكوفة . وخادر : مقيم . الرواية فى بعض أصول الأغانى : « وتوبة أحيا ... » وأجرأ » .
(٢) الكراكر : جمع : كركرة ، وهى الصدر من كل ذى خف .
(٣) العاتق : الشابة . (٤) فى بعض أصول الأغانى : « باسر » .

فتالله تبنى بيتَهـــا[1] أمُّ عامر ... على مِثْـــله أُخْرى الليالى[2] الغَوابر
فليس شِهابُ الحرب تَوبةُ بعـــدها ... بغـــازٍ ولا غادٍ برَكْبٍ مُســـافر
وكنتَ إذا مَولاك خاف ظُلامةً ... دعاك ولم يَعْـدِل[3] سواك بنـاصر

مرثية لها أخرى

ولها فيه من أخرى :

كأنَّ فتَى الفِتيان تَوبةَ لم يَسِرْ ... بنَجْـــدٍ ولم يَطلُع مع[4] المُتغـــوِّرِ
ولم يَرِد المـــاءَ السِّـــدامَ[5] إذا بدا ... سَنا الصُّبْح فى بادى الحواشى[6] مُنوِّر
ولم يَغْلب الخَصْمَ الضِّجاجَ ويَملأ ال ... جِفانَ سَدِيفاً يومَ نَـكْباء[7] صَرْصَر

ومنها :

قتلتُم فتًى لا يُسْقطُ الرَّوعُ رُمحَـــه ... إذا الخيلُ جالتْ فى القَنـا المُتكَسِّرِ
فياتَوبُ للهيجا ويا تَوبُ للنَّـــدى ... ويا تَوبُ للمُستَنبح[8] المُتنَـوِّر
فيـــارُبَّ مكروهٍ أجبتَ ونائلٍ ... بذاتَ ومَعروفٍ لديك ومُنْكَر

مرثية لها أخرى

ولها فيه :

أقسمتُ أَرْثى[9] بعـــد تَوبةَ هالـكاً ... وأَحفِلُ مَن دارتْ عليـه الدَّوائرُ
لَعمـــرك ما بالموتِ عارٌ على الفَتى ... إذا لم تُصِبْه فى الحيـــاةِ المَعايِر
وما أَحدٌ حَيٌّ وإنْ عاش سالمًا ... بأَخـــلدَ ممن غَيَّبته المَقـــابر

(١) فى بعض أصول الأغانى : « أم عاصم » . (٢) الغوابر ، أى الباقيات . يقول : إن هذه المرأة لا يشتمل بيتها على مثله آخر الدهر ؛ فإن الدهر بمثله بخيل .
(٣) فى منتهى الطلب : « ولم يهتف » .
(٤) المتغور : الذى يأتى الغور ، وهو المنخفض من الأرض .
(٥) السدام : المندفن القديم . (٦) رواية هذا العجز فى الكامل :
* سنا الصبح فى أعقاب أخضر مدبر *
والأخضر : الليل . والعرب تسمى الأسود أخضر .
(٧) الضجاج : المشاغب ذو الشدة . والسديف : قطع السنام . والنكباء : الريح تنحرف عن مهبها فتقع بين ريحين . والصرصر : الشديدة الصوت أو البرد .
(٨) المستنبح : الذى يضل فينبح نباح الكلب فتنبح لنباحه كلاب الحى فيهتدى إليه . والمتنور : الذى يبصر النار من بعيد . (٩) أى أقسمت لا أرثى ... ولا أحفل ، فحذف ، وهو كثير .

ومَن كان ممَّا يُحدث الدَّهرُ جازعاً ... فلا بُدَّ يوماً أن يُرَى وهو صابر
وليس لِذِى عيشٍ من الموتِ مَقْصَرٌ ... وليس على الأيَّام والدهر[1] غابِر
ولا الحىُّ ممَّا يُحدِث الدهرُ مُعتَبٌ ... ولا المَيْتُ إن لم يَصبِرِ الحىُّ[2] ناشِر
فكُل شَباب أو جديدٍ إلى بِلًى ... وكُل أمرىء يوماً إلى الله صائر
وكُل قرينَىْ أُلفةٍ لتفرُّقٍ ... شَتاتاً وإن ضَنَّا وطال التعاشُر
فلا يُبعدَنْك الله حيًّا ومَيِّتاً ... أخا الحرب أن جارتْ[3] عليك الدَّوائر
فآليتُ لا أنفكّ أبكيك ما دَعَتْ ... على فَنَنٍ وَرْقاء أو طار طائر

مرثية لها أخرى

ولها فيه :

كم هاتفٍ بك من باكٍ وباكيةٍ ... يا تَوبُ للضيف إذ تُدْعَى وللجارِ
وتَوْبُ للخَصْمِ إن جارُوا وإن عَدلوا ... وبدَّلوا الأمرَ نَقضاً بعد إمْرار
إن يُصدِرُوا الأمر تُطلِعْه مَواردَه ... أو يُوردوا الأمرَ تُطْلِعْه بإصْدار

بينها وبين معاوية فى شأنه

وذُكر أن مُعاوية بن أبى سُفيان سأل لَيلى الأخيليَّة عن تَوبة بن الحُمَيِّر، فقال : ويحك يا ليلى ! أكما يقول الناسُ كان تَوبة ؟ فقالتْ : يا أمير المؤمنين، ليس كل ما يقول الناس حَقًّا، والناس شجرةُ بَغى يحسُدون أهلَ النِّعم حيث كانت[4] وعلى مَن كانت ! والله لقد كان يا أمير المُؤمنين سَبْطَ البَنان، حديدَ اللِّسان، شَجًى للأقران، كريمَ المَخْبر، عفيفَ المِئْزر، جميلَ المَنظر. وهو يا أمير المؤمنين كما قلتُ له. قال : وما قُلتِ له ؟ قالت : قلتُ، ولم أتعدَّ الحق وعِلْمى فيه :

بَعيدُ الثَّرَى لا يبلُغ القومُ قَعرَه ... أَلَدُّ مُلِدٌّ[5] يَغْلِبُ الحقَّ باطلُهْ
إذا حَلَّ رَكبٌ فى ذَرَاه وظِلِّه ... لِيَمْنَعهم مما تُخاف نَوازلُه

(١) غابر : باق.
(٢) معتب : أى راض، من أعتبته، إذا أرضيته. وناشر : مبعوث، يكون متعدياً ولازماً.
(٣) فى بعض أصول الأغانى : «دارت».
(٤) فى بعض أصول الأغانى : «حيث كانوا».
(٥) ألد : كثير الجدل لا يزيغ إلى الحق. وملد : عسر فى الخصومة.

حَماهم بنَصل السَّيف من كُل فادحٍ يخافُونه حتى تموتَ خصائله

فقال لها معاوية : ويحك ! زعم الناس أنه كان عاهراً خارباً[1] . فقالت من ساعتها :

مَعاذَ إلهى كان والله سَيِّداً جَواداً على العِلَّات[2] جَمًّا نوافلُهْ
أغرَّ خَفاجِيًّا[3] يرى البُخْل سُبَّةً تَحلَّبُ كَفَّاه النَّدى وأَناملُه
عَفيفاً بعيدَ الهمِّ صُلباً قناتُه جَميلاً مُحيَّاه قليلًا غَوائله
وكان إذا ما الضيفُ أرغى بعيرَه لدَيه أتتْه دُسعه[4] وفَواضله
وقد عَلم الجُوعُ الذى بات سارياً على الضَّيف والجِيران أنَّك قاتله
وأنك رَحْبُ الباعِ يأتَوْبُ بالقِرَى إذا ما لئيمُ القَوم ضاقتْ مَنازِله

فقال لها معاوية : ويحك ! لقد جُزْتِ بتوبة قدرَه ! فقالت : والله يا أمير المُؤمنين لو رأيتَه وخبرتَه لعرفتَ أنِّى مُقصِّرة فى نَعته ، أو أنِّى لا أبلُغ كُنه ما هو أهلُه . فقال لها مُعاوية : أىُّ الرجال كان ؟ فقالت :

أتتْه المَنايا حينَ تمَّ تَمامُه وأقصر عنه كُلُّ قِرْنٍ يُطاولُهْ
وكان كلَيث الغابِ يَحْمِى عَرينَه وتَرضى به أشباله وحلائله
غَضوبٌ حَليمٌ حين يُطلَبُ حِلْمُه وسَمٌّ زُعافٌ لا تُصاب مَقاتِله

فأمر لها مُعاوية بجائزة عظيمة وقال : أخبرينى بأجود ما قلتِ فيه من الشعر . فقالت : يا أمير المؤمنين ، ما قلتُ فيه شيئاً إلا والذى فيه من خِصال الخَير أكثر ، ولقد أجَدتُ حين قلتُ :

جَزاك الله خَيراً والجزاء بكفِّه فتًى من عُقَيلٍ ساد غيرَ مُكلَّفِ

---

(١) الخارب : اللص . (٢) على العلات : أى على كل حال من عسر أو يسر .
(٣) نسبة إلى خفاجة بن عمرو ، أحد أجداد توبة .
(٤) أرغى الرجل بعيره : إذا حمله على أن يرغو ليلا فيضاف . ودسعه : عطاياه .

فتًى كانتِ الدُّنيا تهُون بأسرها عليـــه ولا يَنفك جمّ التصرُّف
ينـــالُ عَلِيَّات الأُمور بهَوْنةٍ إذا هى أعْيتْ كُلَّ خِرْقٍ[1] مُشَرَّف
فياتَوبُ ما فى العَيش خَيرٌ ولا نَدًى يُعَدُّ وقد أمْسيتَ فى تُرب[2] نَفْنَف
ومانِلتُ مِنك النِّصْفَ حتى أُرِمتْ بك الـ ـمَنايا بسَهمٍ صائب الوَقْع أعجف
فيا ألفَ ألفٍ كنتَ[3] حيًّا مُسلِّماً لألقاك مِثلَ القَسْور[4] المُتطرِّف
كما كُنتَ إذ كُنتَ المُنحَّى مِن الرَّدى إذا الخيلُ جالَت فى القَنا المُتقصِّف
فكم مِن لَهيفٍ مُحْجَرٍ قد أجبتَه بأبيضَ قَطَّاعِ الضَّريبة مُرْهَف
فأنقذتَه والموتُ يَحْرِقُ نابَه عليـــه ولم يُطْعَن[5] ولم يُتَسيَّف

هى وعبد الملك وقد أسنت

وذُكر أنَّ ليلى الأخيليّة دَخلَت على عبد الملك بن مَروان ، وقد أَسنَّت وعَجزت ، فقال لها : ما رأى تَوبةُ فيك حتى هَويك ؟ قالت : ما رآه الناس فيك حين ولَّوْك . فضَحِك عبدُ الملك حتى بَدت له سِنٌّ سوداء كان يُخفيها .

هى والحجاج

وذُكر أن ليلى وَفَدت على الحَجَّاج بن يوسف ، فأَنشدَته قولها فيه :

إذا نَزل الحَجَّاجُ أرضاً مَريضةً تَتَبَّع أقصى دائِها فَشَفاها
شَفاها من الدَّاء العُضال الذى بها غُلامٌ إذا هَزَّ القَناة سقاها

فقال : لا تقُولى : « غلام » ولكن قُولى : « هام » . وقال الحجاج : هذه التى تقول :

نحن الأخايلُ لا يزال غُلامُنا حتى يَدِبَّ على العصا مَشهورَا
تَبكى الرِّماح إذا فَقَدْن أكفَّنا جَزعاً وتُلْفينا[6] الرِّفاقُ بُحورا

(١) بهونة : أى فى رفق وسهولة . والخرق : الكريم السخى . (٢) النفنف : المفازة .
(٣) فى التجريد : « فيالك أن لو كنت » مكان « فيا ألف ألف كنت » .
(٤) القسور : الأسد : والمتطرف : المغير .
(٥) فى غير التجريد : « ولم يتنسف » . (٦) فى غير التجريد : « وتعرفنا » .

ثم قال الحجّاج لحاجبه : اذهب فاقطع لسانها . فدعا لها بالحجّام ليقطع لسانَها . فقالت له : ويلك ! إنما قال الأميرُ لك : اقطع لسانَها بالعَطاء ، فارجع إليه فاستأمره[1] . فرجع إليه فاستأمره . فاستشاط وهَمَّ بقطع لسانه . ثم أمَر بها فأُدخلت عليه . فقالت : كاد وعهدِ الله أيها الأمير أن يقطع لسانى . ثم أنشدته :

حجّاج أنتَ الذى ما مِثلَه أحدُ ... إلّا الخليفةُ والمُستعظَمُ[2] الصَّمدُ
حَجّاج أنتَ سِنانُ الحَرب إنْ نُهِجتْ ... وأنتَ للنّاسِ نُورٌ فى الدُّجى يَقِد

وذُكر أن الحجّاجَ أمَر لها بمائتين . فقالت : زِدْنى . فقال : اجعلوها ثلاثمائة. فقال بعضُ جُلسائه : إنها غَنَم . فقالت : الأمير أكرم من ذلك وأعظمُ قدراً من أن يأمُر لى إلا بالإبل . فاستحيا فأمر لها بثلاثمائة بَعير .

أول شعرها فى الحجاج

وأوّل الشِّعر الذى لليلى فى الحجّاج :

أحجّاجُ لا يُفْلُلْ سلاحُك إنما الـ ... ـمَنايَا بكَفِّ اللهِ حيثُ يراها

و بعده البيتان اللذان مرّا . و بعد هذين البيتين[3] :

سَقاها دِماءَ المارقين وعلَّها ... إذا جَمحتْ يومًا وخِيف أَذاها
إذا سَمِع الحجّاجُ صوت[4] كتيبةٍ ... أَعدَّ لها قبل النُّزول قِراها
أَعدَّ لها مَصقولةً فارِسيَّةً ... بأَيدى رِجالٍ يَحْلُبون[5] صَرَاها
أحجّاجُ لا تُعْطِ العُصاةَ مُناهُمُ ... ولا اللهُ يُعطى للعُصاةِ مُناها
ولا كُلَّ حَلّافٍ تقلَّد بَيعةً ... فأعظمَ عهدَ اللهِ ثم شَراها

وفاتها كيف كانت

وذُكر أنَّ ليلى الأخيليَّة أقبلت مِن سفر ، فمرَّت بقَبر توبة بن الحُمَيِّر ، ومَعها زوجُها وهى فى هَودج لها ، فقالت : واللهِ لا أبرح حتى أُسلِّم على توبة . فجعل

(١) استأمره : استشاره . (٢) فى بعض أصول الأغانى : « ما فوقه أحد ... والمستغفر » .
(٣) انظر (ص ١٢٩٤) من هذا الجزء .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « رز » وهو الصوت . (٥) الصرى : بقية اللبن .

زوجُها يَمنعها من ذلك ، وتأبى إلا أن تُسلِّمَ به . فلما كثُر ذلك منها تركها . فصَعِدت أكمةً عليها قبرُ تَوبة ، وقالت : السلام عليك يا تَوبة . ثم حوَّلت وجهها إلى القوم ، وقالت : ما عَرفتُ له كَذِبةً قطُّ قبل هذه . قالوا : كيف ؟ قالت : أليس القائلَ :

ولو أنَّ ليلَى الأخيليَّة سلَّمَتْ ... علىَّ ودُونى تُربةٌ وصَفائحُ
لسلمتُ تسليمَ البَشاشة أو زقا ... إليها صَدًى[1] من داخل التُّرب[2] صائح
وأغبَطُ من ليلى بما لا أناله ... ألا كُلُّ ما قَرَّت به العينُ صالح

فما بالُه لا يُسلِّم علىَّ كما قال ! وكان فى جانب القبر بومة كامنة ، فلما رأت الهَودج واضطرابَه فَزِعت وطارت فى وجه الجمل ، فنفر فرمَى ليلَى على رأسها ، فماتت مِن وَقتها . ودُفنَت إلى جانبه .

شعرها الذى فيه الغناء

والشعر الذى فيه الغناء ، وافتتح به أبو الفرج أخبار ليلى الأخيلية ، هو :

فإن تكن القتلى ... ...

وقد تقدَّم ذكر ذلك[3] .

---

(١) زقا : صاح . والصدى : طائر كالبومة ، زعمت العرب أنه يخرج من رأس القتيل ويصيح : اسقونى ، اسقونى ، حتى يؤخذ بثأره .

(٢) فى غير التجريد : « من جانب القبر » .

(٣) انظر (ص ١٢٩٠) من هذا الجزء .